

حياة أُخرى

هدى عيد

رواية

دار الفارابي

الكتاب: حياةٌ أُخرى

المؤلف: هدى عيد

الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي - بيروت - لبنان

ت: (01)301461 - فاكس: (01)307775

ص.ب: 3181/11 — الرمز البريدي: 1107 2130

e-mail: info@dar-alfarabi.com www.dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى 2012

ISBN: 978-9953-71-799-9

جميع الحقوق محفوظة

تباع النسخة الكترونياً على موقع: www.arabicebook.com

الإهداء،

إلى الرّائعين لين وجاد بيرم
إلى كلّ من يَنشُدُ الحبَّ
والحياة...
هدى

القسم الأول

في مارماريس المدينة البحرية الجميلة

... والبعضُ نحُبُّهم

لكننا لا نجدُ صدقاً لهذا الحبِّ في قلوبهم...

فننهارُ وننكسرُ

ونتخبَّطُ في حكاياتِ فاشلةٍ...

جبران خليل جبران

[1]

يقول لي بابتسامٍ ساخر:

- أنظري يا فاطمة، لا بدّ أنّه الباص الذي سيوصلك إلى جهنم التي تعديني بها دائماً، هه، لقد وصل أخيراً.

بقيت العبارة معلقة في رأسي، واستمرّ خوفي معلقاً.

في تلك اللحظة ما عاد زمنه مهماً، باتَ زمني هو الأهمّ، بات هو الأكثر كثافةً، وحضوراً، أسمعُه ولا أسمعُه، أنظر إليه ولا أراه.

لا، ليس ما بي الإحساسُ بالخسارة، وإنّما هو إحساسٌ واضحٌ بالعجز، بانعدام القدرة على فعل شيء ما استطعت يوماً فعله.

ورقةٌ طائشة تنبّدي لي الحياة، أستطيعُ ركلها بقدمي، شوطها بعيداً، وحين يعلو صراخنا، تستحيلُ الحياة عيئها تياراً مائياً يمسكني من قدمي، ويشدّني إلى الأسفل، يشدّني عميقاً، يقذفني من اليمين إلى اليسار، ومن اليسار إلى اليمين، ورأسي ذاهلاً عن قياس المسافات.

- إلى الجحيم يا فاطمة، اذهبي ركضاً إليه، أو استقلّي الباص إذا شئت. الأمر سيّان.

يقولها لي، والسخرية تسيل من عينيه.

لكنّ الطائرة حطّت بخير، وتوقّف لساني عن قراءة الآيات القرآنية التي ما برحت أتلوها مذ أقلع الطيّار.

اكتشفت مجدداً أنني مؤمنة، رغم الجهود المتكرّرة التي سفحتها خلال سنوات كي أكون مُلحدة، الرّحلة أكّدت لي فشلي، مازال قلبي عامراً بالإيمان.

أردت ألا أكلمه إطلاقاً قبل مغادرتي المنزل، لكنني لم أستطع.

وقفت أمام باب الغرفة التي تشهدُ جُلّ معاركنا، طاف نظري على كل ما فيها، وابتسمت على قدر ما سمح لي اضطراب جوفي. سأفتقد سريري والمرأة، أمّا الجحيم فلا.

- هل تريدُ شيئاً من هناك؟

- تسن، لا.

تسيلُ الصّفرة من ابتسامته.

- مع السّلامة اذهبي، وانبسطي. وافرحي.

يهزّ رأسه بأناة، أغادر المكان.

[2]

يختم موظف الأمن العام التركي الباسبور.

وجّهه محايد، يدفعه إليّ، أبتسم له بحكم العادة، لا يردّ ابتسامتي بأحسن منها.

أضع الباسبور في حقيبة يدي، أقفلها جيّداً.

ألحق بمجموعة المسافرين الذين ترجّلت وإياهم من الطائرة، كانوا قد ابتعدوا قليلاً عني، استدلتُ عليهم من الفلبينية التي تحمل الصبي الصّغير، الهواء في الخارج ناعمٌ لطيف، أسرعت الخطو، مازال ربّ تلك الأسرة على تعاليه، يتحدّث مع زوجته بتمرّد، صفع ابنته التي بدت لي في الثامنة من عمرها، ونترها من يدها بعنف. ركل ابنه الأصغر سناً على قفاه حين أراد المرور ضمن أعمدة الحاجز الحديدي، والتأرجح فيما بينها، ينهزُ بين حين وآخر الخادمة الفلبينية عندما يرتفع صوت الصبي الذي تحمله:

- أسكتيه.

تهزّ رأسها، ولا تجيب، تحاول إسكاته.

الزوجة تغرق في لامبالاتها، لا تعباً به، هو لا يعباً بالآخرين. اقتربتُ أكثر، داخلني اطمئنان ووجوهٌ كثيرة رأيتها في الطائرة عادت تحيط بي، زوجان شابان يتناغشان، طوال الرحلة، هو يداعبها، ويقبلها، وهي تزداد دلالاً ويزغرد صوتها، نظرت إليهما أكثر من مرّة.

وجوهٌ أخرى كثيرة لم أعرفها من قبل، لكنني راقبتها وقت الطيران، حين أنزع عينيّ عن الغيوم، وقبلها عن الجبال والسهول التي تتوالى بعيدة صغيرة لا تكاد تبين، أهدقُ إلى الغيوم البيضاء والرّمادية وقتاً، أستلمح نعومتها، أنظر إلى الشاشة التي تشير إلى حرارة الخارج إلى ما دون الصّففر، أتملّى الوجوه بملل، لا أحسّ بألفة حيال أحد، رغم لطافتي العميقة، إلا أنّي لا ألفت البشر بسهولة.

اخترت مقعداً متقدّماً في البولمن المريح الذي تولّى نقلي، وسائر المسافرين اللبنانيين القادمين برحلة استجمام، يستجمون من أجواء الوطن، يستريحون من حبّهم العنيف له.

المشاهد متنوّعة ما بين أشجار شامخة كالسّرو، والصنوبر والشربين، ومساحات أخرى امتلأت بالأشجار المثمرة كالزيتون، والتّفاح، والخوج والتين، وسواها من الأشجار المتوسطة التي تعرفها بلادي جيّداً، لربّما انتقلت من هناك بحكم التاريخ الذي جمع البلدين، أيّ نعم هو تاريخٌ مشينٌ قابلٌ للتجدّد وفقاً لمسار الأمور، لكن لا بدّ أنّ فيه بقعاً بيضاء قدّ زينته، قد تكون أشجار تين وزيتون، لمّ لا؟

أحبّ أن أنظر إلى مشهد البيوت المتفرّقة، والتي تنتشر على مسافات متباعدة، تباعدها يعيدني إلى جوّ قروي فقدته في بلادي، إلّتهم العمران كلّ شيء في الأونة الأخيرة، قضم الأخضر واليابس، قرّم كلّ زاوية، وقرش حتى الحجر، تلالٌ بأسرها تختفي في أزمان قياسية، وتقوم مكانها بناياتٌ ذات نوافذ وأبواب، أكوام من الحجارة والزجاج، جدران تنتصب بصلاية ويتحدّ أمام الوجوه.

الرّحلة ما بين مطار Dalaman ومارماريس تستغرق ساعتين، أكثر ما ميّزها هذا التوالد الهادئ لمشاهد الطبيعة الجميلة التي لا تكاد تنتهي، طبيعة بكر، وأخرى نسقتها يد الإنسان، لكنها في الحالين ممتعة جميلة.

سأحاول قدر الإمكان الاستمتاع بهذه الرّحلة، نصحتني بذلك نادية، قالت لي وعيناها تدمعان:

- سافري، ابتعدي قليلاً، ارتاحي وستكونين أفضل.

عانقتها وهي تبكي.

- لم يكن ينقصك غير موت مسعود.

قالت ذلك، وعاودت البكاء.

أزحتها عن صدري، أكره البكاء.

ربّما أفادتني رحلة الاستجمام هذه، ربّما أفادني الانتقال من المكان، على ألا أحمله في داخلي.

جوف الإنسان متسع المساحة، اتّساعه مخيفٌ أحياناً، يبتلع أشخاصاً وأمكناً، ومشاعر وهلوسات، أفكّر بذلك من حين لآخر، مساحته تستطيع ابتلاع الأخضر واليابس، لكنّ مشكلتي الآن عسر الهضم الذي أعانيه، ما عاد جوفي يتسع.

البولمن يتقدّم بأناة، الطّريق رحيبة جميلة، أشجارٌ وخضرةٌ وهواءٌ لطيف. ثمّة أطفالٌ يتحرّكون حولي، آخرون تعبوا من الرّحلة، التزموا أماكنهم، بدا النعاس على وجوه، وأخرى بقيت متيقظة.

- مامي، مامي، متى نصل؟

- بعد قليل جُو، إهدأ قليلاً.

- فندقنا جميل؟

- إنّه جميل جدّاً.

- أستطيع أن أسبح بمجرد أن نصل، اليبسين جميل، هل ينزل ميشال معي؟

- إفعل ما تريد، إهدأ الآن، اليبسين جميل، وكلّ شيء جميل.

يقوم الصبي من جوارِي، ثمّ يعود...

جلس إلى جانبي لأنّ لا رفيق معي، وحيدة كعادتي. احتلت الأم وزوجها مقعدين متجاورين، وأشارت له نحو المقعد المجاور لمقعدها، والمتقابل مع مقعديهما. حركته الرّائدة أزعجتني قليلاً، حاولت تجاوزها، ابتسمت له بدايةً، لكنه لم يتوقف عند ابتسامتي، قد يكون أحسّ بافتعالها، أعرف أن الأطفال أذكاء، استمرّ بالحركة وبطرح الأسئلة، صرفت وجهي نحو الخارج، وعدت إلى وحدتي:

- كلنا نساfer وحدنا في النهاية.

أين قرأت ذلك؟

في موسم الهجرة إلى الشمال، أحببت الرواية كثيراً، قرأتها أكثر من مرّة، أصبحت القراءة متعني الوحيدة بعد أن استفحل الكيدُ بيني وبين حيّان. الآن أحاول متعة أخرى.

المشهد جميل، صدري ينفث شيئاً فشيئاً، ومارماريس المدينة التركية البحرية الجميلة بدأت تظهر هناك في الأسفل،، تبدو لي وأنا أبصرها من نافذة البولمن من علّ، تحوطها الجبال، وتستقرّ هي عند أقدامها على مساحة متسعة، بيوتٌ مقرمدة حمراء، و؟يلات وشاليهات، راحت كلّها تتبدّى لنظري، أطلقته نحو مسافات متقدّمة، سفنٌ تظهرُ بصواريتها قريبة من الشاطئ الطويل الذي تنفتح عليه المدينة، سفنٌ بنيّة خشبيّة داكنة، وأخرى بيضاء اللون جذابة، المشهد يدفعني إلى الإحساس بالانتعاش، وبالاختلاف.

أفكرّ بالإنسان وبلهائه وراء الاختلاف. سرابٌ خدّاع.

طوني، الموظّف المنتدب من قبل شركة (نخّال للسياحة والسّفرة)، والذي استقبلنا فور خروجنا من مطار Dalaman يستمرّ يثرثر، لا يتوقف عن الكلام، وعن ذكر مواصفات المدينة السياحية، وعن كمّ السّياح الهائل من الأجانب، يقصدونها كلّ عام لتمايزها، أما عن النشاطات الترفيهيّة، فيشير إلى اجتماع في صباح يوم الغد، عند التاسعة تماماً:

- نفضّل عندها كلّ شيء - يقول - لا تقلقوا، أنا هنا في خدمتكم.

الصبي إلى جوارني لا يهدأ، في كلّ مرّة ينهض متجهاً إلى أمّه يحدثها، أو يطرح عليها سؤالاً، أو يطلب إنذاراً لأمر ما ينوي فعله، تصرفه عنها متلهية بالصبي الآخر الذي تناغيه في حضنها.

يعود إلى مقعده، يعاود الحراك، أنتبه إلى أنّ عليّ ألاّ أنزعج، وأن أفكرّ في جمال الأطفال بالمقابل، وفي انطلاقهم، وفي تحرّرهم من قيودي، وفي الشوق الذي عاش في صدري حيالهم زمناً ثمّ انطفأ، لا في أيّ شيء آخر.

ولكن هل انطفأ شوق الأمومة في ذاتي حقاً؟ في زمن ما، في وقت مضى، كان الألم ينهشني في كلّ مرّة تعاودني الدّورة الشهرية، أكل روجي الألم، وفتنتها مرّات ومرّات. أستمرّ خلال الفترة التي تتوسط الزمن الفاصل بين دورة وأخرى أحرص على مضاجعة حيّان بانتظام وبدقّة، وبحسابات لا تعرف الخطأ ولا التساهل، حتى حين كان يبدو أحياناً متعباً أو متململاً، كنت أتحايل عليه، أتزين وأنتقي العطور المثيرة التي يحبّها، أحياناً أشتري Baby Doll جديدة مثيرة أستحث همته، أفعل ما عليّ فعله، نقوم باللازم، وبعد ذلك أنتظر بقلق.

وهو، في السنوات الأولى من الزواج، لم يكن ينقصه الحماس، بمجرد أن الوّح له كان يستجيب، كامل الرّجولة، كامل الفحولة، هكذا كنت أجده، أو هكذا صوّر لي ذاته، بعدها كرّرت السّنوات، الواحدة تلو الأخرى، الشهر فيها ينطح الآخر، ودورتي على انتظامها، لا تقدّم ولا تؤخر، تأتيني كلّ ثلاثين يوماً، تتدفّق دمائي بحرارة، ويتدفق ألمي وخيبيتي، وإحساسي بالخذلان، وبالغضب المكتوم. ونادية تهدئني.

أسأل نفسي المرّة تلو الأخرى فيم أنا مقصّرة؟ فيم يقصّر هو؟ أسأل الأطباء، وأشتري المجالات التي تتحدّث عن العلاقات الزوجية، تشرّح وتفصّل أصولها ووضعياتها لأتأكد أنّ كلّ ما يجب فعله، أفعله، ويفعله زوجي، وأكثر من ذلك كنت أحبّ زوجي، وأغرق بحبه، وأحسّ أحياناً أنني أدوب بين ذراعيه إذ يحتضنني، وأن روجي تتعالى وتتخبّط بين جدران صدري إذ أبلغ سعادتي.

مطحنة الأيام آلة شيطانية.

البولمن يسلك الآن الطريق المستوية، بعد أن انتهى من كلّ الطرقات المنحدرة الكثيرة المنعطفات،
ودخل فعلياً أرض المدينة. المندوب يعلن:

- نحن الآن في منطقة المارينا، متنزه كلّ السّياح.

إذا أحببتم نقوم معاً عند الحادية عشرة ليلاً باستكشافها، لكن الآن لا بدّ من إيصالكم إلى فنادقكم.

ترتفع الأصوات مرّجة بالكلام.

[3]

مجموعات الركّاب تبدأ بالنزول تبعاً في الفنادق المترامية على طول الشاطئ.

ربّما كنتُ الأخيرة التي غادرتِ البولمن مع زوجين شابين، حجز لي حيّان غرفة في فندق Grand Azur ، ونبهني أكثر من مرّة إلى كونه فندقاً ذا خمسة نجوم، كأنه يمتّني، لم أبال، أمورٌ كثيرة ما عدتُ أعبأ بها، أكتفي بهزّ رأسي، وبالصّمت ملاذاً آمناً من النقاشات الفائرة التي بات يُغرّقني بها. أهرب إذ أسمع صوته يتعالى، أتظاهر أنني لم أعد أسمع، سمعي خفيف.

الغرفة التي نزلتُ فيها لطيفة مريحة، الشراشف نظيفة، وهو أمرٌ أحرص عليه دائماً: نظافة الغرفة، وإزالة كلّ ما يفسد صفاءها، وتلميع كلّ ما فيها كأنّي ألمّع حياتي وأجلوها، لكنني أجدّها أبداً ملأى بالبقع من كل نوع ولون.

مشهد الحديقة الذي أطلّ عليه من الشرفة الصّغيرة أنيقٌ جميل، نخيلٌ وورودٌ وأعشاب.

أقضي وقتاً أرْتبُ أشيائي، أسوي بعض الدتتي شرت التي ابتعتها خصيصاً لهذه الرّحلة، أجعلها فوق السّروايل الملائمة لكلّ منها. أعلّق الفساتين التي حملتها معي.

أضع فرشاة الأسنان والمعجون، والمشط في الحمام، أتحمس قليلاً عند رؤية المرآة المتسعة التي تعكس نظافة البورسلين والبانيو، أنظر وجهي في المرآة:

- لا بأس به، بعد كلّ ما كان.

أحدث نفسي، وألوي شفّتي.

أتمدّد على السّريّر المرتّب، أنظر إلى السقف والسّتائر، أرفع ساقّي في الهواء، أحرّكهما بشكل نصف دائري، تمرين أتقنه منذ الصّغر، أحياناً حيّان ينهرني حين يراني أفعل ذلك:

- كأنك مازلت صغيرة، ألا تنظرين إلى وجهك في المرآة؟

- أنظره، ولا أجد آثارك عليه.

أجيبه في داخلي، لا يغادر الصّوت شفّتي.

أستمر في تحريك ساقّي.

أدندن بأغنية أم كلثوم التي مازلت أفضلها على ما عداها «يا حبيبي يا عبير الشّوق يا حبيبي».

أفكر بأن حيّان لم يفلح بقتل كلّ ما فيّ، الحبّ كلّه، والشّوق كلّه.

سأحاول أن أبعد طيفه عن رأسي، لا أريد أن أفكر فيه بعد الآن. ماذا يفعل؟ أين يذهب؟ من يلتقي؟ فليذهب إلى الجحيم، لا بأس.

أنظر ساعتني:

- الثامنة إلاّ عشر دقائق.

البوفيه المفتوح الذي يقدّم العشاء يبدأ عند الثامنة.

- Message تصلني عبر الآي فون، صديقتي نادية، تقول: الحمد لله على السلامة، استمتعي بإقامتك.

المجنونة، رفضت أن ترافقني، تخاف أن تترك البلدة لئلا يصل يحيى أثناء غيابها. مجنونة حقيقية لا أدري كيف استمرت العلاقة بيننا، فيها ما يزعجني في الآونة الأخيرة.

- ربّما كان جنونها هو السبب؟

- ربّما.

أسأل نفسي، وأجيبها، أحياناً تسليني هذه المحادثات.

مع الأيام اكتشفت أنّ بشراً كثيراً يحادثون أنفسهم، غالباً ما أقبض على أحدهم، أو على إحداهن تخاطب نفسها أو نفسه بحماسة، بمجرد أن يشعر الواحد بوجودي، يتنحى ويصمت، أسرّ إذ أوقن أنني لست وحدي وحيدة. أبدّل ملابسي بعد نهوضي عن السرير، أرتدي الفستان الأسود الأنيق الذي يُظهر جمال بشرتي وجسدي، أسوي شعري، أطمئن: مازلت جذابة أنيقة.

مشاعري تريبكني، لا تستقرّ على حال، مازلت حزينة على مسعود، موته ألمني في العمق، تمنيت لو لم أسافر إليه في السنّة الماضية، تمنيت لو لم أقترّب منه ومن طبيئته، ما كنت انقهرت بالشكل الذي حصل، أخواتي لم يحزننّ حزني ربّما لأنهنّ لم يرينه منذ زمن بعيد، فهو لم يزر لبنان منذ عشرين سنة. وفي الوقت عينه أحسّ خفة ما، فرحاً صغيراً ينمو في صدري في كلّ لحظة أبتعد فيها عن حيّان.

[4]

أفضّل الجلوس في الصّالة المبرّدة، حيث أتناول الطعام بهدوء، أختار طاولة منفردة قريبة من الجدار، أنتقي أنواعاً من السلطة، كوباً من الحساء، أختار الستيك المشوي طبقاً رئيسياً، أكتفي بقطعة واحدة متوسطة الحجم، أنتقي قطعاً من البطاطا المقلية المحمّرة، أحبّها رغم الوحدات الحرارية العالية التي تشتمل عليها. أرتب أمامي الأطباق، أجلس، أتأمل طريقة وضعي للصّحون، لن يُفسدها حيّان هذه المرّة، باتّ في الآونة الأخيرة يعيدُ ترتيب كلّ شيء أضعه على طاولة الطّعام، بمجرد أن يجلس يحركّ الصحون من أماكنها، يُعدّ أكواب الماء والشاي التي أنتقيها، ينقل إبريق الشاي، إبريق الحليب الزجاجي الصّغير، لا يدع شيئاً في مكانه، أهدأ بدايةً، أتظاهر باللامبالاة، بعدها أعيد الأشياء إلى أماكنها، أعيد كلّ شيء، الصّحون والأكواب، وعلبة الخبز، يلوي شفّتيه، وينهض بغضب مكتوم.

يتكرر المشهد عند كل وجبة مشتركة، أحياناً يتخلف عن الطعام إثر نقاش بيننا، لا أبحث الموضوع معه، يبقى معلّقاً، كما علّقت أمور كثيرة.

يا له من هدر! أن ألوّك أيّامي كما ألوّك قطعة اللحم الآن في فمي، لا أنا أزدردّها، ولا أنا أبصقها، حياتي مع حيّان باتت كقطعة الستيك هذه، مشهدها في الصّحن شهّي مُغرٍ، لكنني حين ألوّكها لا أتمكّن من ازدردّها بسهولة، تبقى عصية على الابتلاع.

النادل إلى جوار يملأ كوب الماء الذي فرغ دون أن أحسّ، أبتسم له:
- شكراً.

يبتسم بسخاء حانياً رأسه بتهذيب.

أي غبطة أن تجد من يعطيك دونما سؤال، قلّ العطاء في الحياة، لربما لذلك ينعدم الفرح. حيّان ما عاد يعرف اللطف ولا اللياقة، قسوته تستحيل شجرة فارعة ذات أغصان لا يسهل تجاوزها.

لا يستحي الرّجل أن يحدّثني أحياناً عن بعض التفاصيل التي تحرجني، يجرح مشاعري ببساطة قاتلة، يخبرني مثلاً بأنّ زوجة صديقه قد وضعت مولوداً جديداً، ذكراً، كالذي أحلم به - يقول - أنت تعرفين طبعاً، ويكمل:

- أحضر حلوية اليوم إلى المكتب احتفالاً.

يصمت بلوّم، ويبقى ينظر إليّ، أكتفي بالصّمت، أحياناً أغلق أنفيّ، وأغادر غرفة النوم حيث يخلو له الاسترسال بالكلام، ازدادت قسوته حدّة حين رحّت أنقل له بعض ما يُقال عنه، أستفسر:

- هل هو فعلاً أكبر مُرتشّ عرفته الدوائر العقارية، واحد من الديناصورات التي تعرقل كلّ صغيرة وكبيرة حتى تتقاضى المعلوم؟

أسأله والاتهام يقفز من عينيّ، يسخر مني ومن عقلي المتخلف:

- ربة الشرف والعفاف.

البارحة، وقبل مجيئي إلى هذا المكان الجميل، حلمت أنني أركب باصاً طويلاً عريضاً فاخراً، مقاعده جلدية أنيقة، كانت نادية صديقتي الحميمة التي تعرف كل أسرارتي معي، وقد جلسنا على المقعدين الأماميين، امرأة متنمرة تجلس في الخلف، تنظر إلينا بعدائية لا مبررة، لم يكن ثمّة سائق لذاك الباص، قامت نادية من مكانها، راحت تحدّثني، حرّكت يدها لا أدري كيف، سمعنا صوتاً كأنه هدير محرّك، فإذا بالباص يندفع إلى الأمام ببطء بداية، وبسرعة لا تحدّد بعد ذلك. تنامي الدّعر في داخلي، إذ لا سائق لذلك الباص اللعين.

رحت أصرخ بنادية لتوقفه، وقلبي يخفق بشدّة، يرتجّ في صدري، ونادية بدت لامبالية، لا تستمع، تبتسم ببلاهة فقط، إذ علا صوت المرأة الجالسة في الخلف، راحت تضحك، ويهدر صوتها، وأنا أصرخ ولا أحد يسمع صوتي، ولا وجيب قلبي، والباص يعدو وينطلق بسرعة مجنونة، والأفق ينفتح أمامي على فراغ هائل يبتلعني، والهواء العاصف يصفر في كلّ اتجاه.

أزعجني المنام، خفت أن أركب الطائرة التي أقلتني إلى هذا المكان؟ حين أخبرت حيّان بما رأيت، ضحك باستمتاع ما بعده، ثم قال لي:

- أنظري يا فاطمة، ها هو الباص الذي سيحملك إلى محبوبتك جهنم التي تنذريني دائماً بها، انبسطي يا ستي لقد وصل.

انصرفت عنه. يتحوّل الشرّ إنساناً يحادثك!

مرّت الرّحلة بسلام، أستذكر حلمي الآن، أفكّر بأنّ حياتي وحيّان ربّما تكون ذلك الباص الذي لا يريد أن يتوقف، أم أنا من لم يتخذ قرار إيقافه بعد!

أبتلع اللقمة بصعوبة، أشرب الماء مجدداً، أبعد معقدي عن طاولة الطعام، ثم أسير إلى الأمام.

[5]

أتمشّي خارج صالة الطّعام، أخرج إلى حديقة الفندق.

تنسيق وأشجارٌ وزهورٌ وتنوّعٌ، طاولاتٌ وكراسٍ متفرقة، أناسٌ من جنسيات مختلفة يتوزّعون المكان، يجلس بعضهم في مجموعات، بعضهم يجلسُ بشكلٍ ثنائي، ثمّة فرقة موسيقية محدودة العدد تحتلّ زاوية مرصوفة ببلاط ملوّن جُعل على شكلٍ مربعٍ متوسط الحجم، موسيقى ناعمة مختلفة النغمات تهيمن في الأجواء.

أدور في الناحية أستكشفها، أجد طريقاً ضيقاً بين الشجر الملتف، أسلكه، ينتهي بي إلى سور يحيط بالحديقة، بوابة صغيرة مفتوحة على الطريق العام، والطريق العام يفتح على مياه بحرٍ إيجيه، وكأنّه يفتح على الدنيا بأسرها، أفق مبهورة، تسعدني المفاجأة، هكذا، مسافة قصيرة وينقلب المشهد!

بشرٌ من جنسيّات مختلفة، اللكنات تختلط، الأصوات تتعالى مرحة، أتذكر قول المتنبي:

«ملاعبُ جنّة لو سار فيها

سليمان لسار بترجمان»

أبتسم لذاتي لأنّي تذكرت الكلام، أو لعلّي أبتسم لأن الكل يبدو كذلك، تصميم إنسانيّ على الفرح وعلى الإنطلاق، الإرادة البشرية يُقال، أتأمل الملابس الملوّنة الخفيفة، الأحذية البسيطة في الأقدام، الصنادل، المشايات، الحلقات المعدنية في بعض الأذان والأنوف، الشّعور المسترسلة، والأخرى الملونة ألواناً فاقعة، أفكّر بأنّ الأجنب ههنا قد كسروا القيود، لا يظهرون إلّا بما يفكرون، قناعاتهم تبدو على مشهديتهم، (لا يشبهوننا)، أقول في ذاتي.

أنتطق، أجد نفسي أسير وأسير، أتلقّت حولي، أدوب في الجموع السائرة بعد وقت، أتقدّم أكثر، فأحسّ بالعدد يكبر حولي، أدوب أكثر، يتسرّب إليّ منهم إحساسٌ ما بالتححرر، بالرّاحة، أحسّ بأن جسدي قد أصبح فجأة أكثر خفّة وسرعة، أفيضُ نشاطاً.

عن يساري مقاهٍ لا حصر لها ولا عدّ، مقاهٍ ذات نكهات متعدّدة، بعضها هادئ، والآخر صاخب، بعضها ينير مئات اللمبات الكهربائية، الآخر خافت الإضاءة وضع العاملون فيها على كلّ طاولة شمعة يتلاعب ضوءها.

كلّها تقدّم عروضات راقصة، احتفالية، تغصّ بالرّواد، يقف نادلان أمام كلّ مقهى تقريباً، يدعوانك بابتسام إلى الدّخول، أبتسم لبعضهم، أهرب بعينيّ من البعض الآخر، يخرجني الإلاح.

أنحاز ناحية اليمين، مياه البحر تتناديني، تلتمع في ضوء النجوم، ساحرة، الأمواج خفيفة كسلي، تضربُ الحصى على الشاطئ بنعومة فائقة، كأنها تقبله، تتقدّم من السائرين ثمّ تتراخي بسرعة، أنتى ناعسة لا تريد مغادرة السرير.

تغزيني المياه، لكنّ العتمة البعيدة تُثير الخوف في ذاتي، أفضل السباحة في النهار، في عزّ الضوء، الوضوح حاجة ملّحة لي، أحبّ أن أرى كلّ ما يحيط بي جيّداً، العتمة تُرعيني.

سأنتظر الصّباح، الآن عليّ أن أتابع السير الخفيف، خطوي سريع رشيق، شيء ما طريفٌ
يسترعي انتباهي، أتوقف لحظة أتأمل، لحظات، أسير، أسلكُ طريقاً حافلاً بالحياة، لا يشبه حياتي
الأخرى، في المقلب الآخر. لا أريد أن أتوقف.

أحبّ شعور الدّوبان في ذاتي، كلّ شيء في داخلها يتفكك، ينحلّ، يتحرّر قلبي قليلاً من ألمه، أربت
عليه، أحتّ خطاي أكثر، قدماي تهرولان، جسدي تزداد خفته ورهافته، أو من بنحافتي فجأة، أخاف
من اندفاعي قليلاً، لكنّ الفرح يبدأ يغزو نفسي المتعبة، هرولتي تتحوّل ركضاً، مقاهي الحياة تتوالى
أمام ناظري، الرّكض يحقّزني، ينعشني، هواء الليل النّاعم يتغلغل في خياشيمي، في رنتي، في
صدري، يتغلغل حتى في أصابع قدمي.

[6]

العاشرة صباحاً، ينزلق جسدي في المياه، برودة مرعبة تسري في جسدي، عضلات ساقيّ مازالت متصلّبة من هرولة الليلة الفائتة، بقيت أسير وأركض حتى الثانية عشرة ليلاً.

راقبت السفن والناس في هذه المدينة الجميلة، تأملت الوجوه والأجساد التي لوحتها أشعة الشمس، بعضها بدا كالفرّوج المحمّر، يعبّ أصحابها الشمس بنهم، يختزنون قسطاً يحفظونه لبلاد باردة يعودون إليها.

عدت على المارينا مجرد صبيّة فتية مغسولة بالنّشاط وبالاندفاع، أعدو بين الجموع التي لم تكن تعبا بي، محصول الحداثة الأهم، بشرّ توقعوا على ذواتهم، اهتمامنا افتراضي، تواصلنا افتراضي، وربّما بات وجودنا فيما بعد كذلك.

نُمت بعمق البارحة، تصالحت مع جسدي الذي تمرّد عليّ طويلاً في الأونة الأخيرة، أحّ المياه باردة للغاية، رغم الأشعة التي تتلأأ عليها، تغمرني مياه زرقاء صافية نظيفة، من خلالها ألمح الأسماك الصّغيرة التي تحاول الاقتراب بنعومة من قدميّ، المياه شفافة بلوريّة، الحمد لله أنّ أجساد البشر ورؤوسهم ليست كذلك، كارثة فعلية لو كانت، جسدي يكاد يتجمّد، المياه في بحر بلادي أكثر دفئاً ونعومة، لكنها قدرة، في الأونة الأخيرة راحت أكياس النفايات والفضلات تطفو على السطح، بتّ أنفّر من السباحة فيها، أفكّر بأنّ كلّ قذارتنا قد طفت على السطح، ما عدنا نسعى لإخفاء شيء، مات حيواننا، أحركّ ذراعيّ بقوة، قدماي تضربان المياه، يتخلصان من ثقلهما بالتدريج، أندفع تماماً إلى الأمام، خفتي تصبح واقعاً مهيمناً، أنقّدم ببطء، لكن بثبات، أشقّ المياه، أستعذب البرودة، تستحيل انتعاشاً مع حركة جسدي وتقدّمه، أشقّ المياه كما شققتُ طريق حياتي مع حيّان بإصرار وبتصميم، اكتشفت فيما بعد حماقتي، سخفٌ لا معنى له كان ذاك الإصرار، تقضي حياتك تتناول دواء معتقداً بقدرته على شفائك، بعد ذلك تؤمن أنّه سبب علتك، يداي تضربان المياه المتدفقة بقوة كأنما أضرب كلّ الماضي الذي كان، أبعد من أمامي، أنقّدم لا أدري إلى أين، أصل إلى الحدّ الفاصل، لكنني لا أتوقف.

يندفع رأسي داخل المياه وخارجها، ومعه تندفع صورة نادبة إلى رأسي بقوة، أتذكر سباقنا في مياه الحمام العسكري، في مسبح الساندرزوك في منطقة الرّميّة، نادبة تضحك بعذوبة، أسنانها اللؤلؤية تتراقص، أقول لها:

- أجمل ما فيك ابتسامتك، اضحكي.

ترميني بكميات متتالية من المياه، نضحك من قلبينا.

الحمقاء رفضت أن تأتي معي، الحمقاء التي لا تملّ الانتظار.

أغضب منها كثيراً، أشتمها، ألعن سلبيتها.

وانتظارها الغبي ليحيى، تنتظره منذ عشرين سنة، تؤمن بعودته من كندا ليتزوجها، ويجعلها عروسه؟؟ ترفض أن تصدّق ما قاله أخوه عماد من أن يحيى خلص:

- قد تزوّج هناك صبيّة من الجنوب، صحيح أنها مطلقة، لكن لا أولاد عندها، ومعها الجنسية، تعرف هذه مسألة هامّة، والدّنيا في نهاية الأمر قدرٌ ونصيب، نصيبه في غير منزلكم.
لا تصدّق الحكاية، ولا تصدّق أن نصيبه في غير منزلهم الذي استضافه أيّاماً وليالي، يأكل ويشرب وينام على ذراعيها بدعوى أنّها زوجته؛
- أنت زوجتي أمام الله والناس أجمعين.
لا تصغي جيّداً لوالدها لا تعود تسمعه، هو لم يحبّ يحيى منذ البداية، لم يستطع أن يحبّه مذراه، لم يستلمح عينيه الزرقاوين، قال إن فيهما خبثاً لا يخفى على عاقل.
- فيهما غشّ، لا يلائمنا، ليس من طينتنا.

وهي تدوب من نظرة عينيه الزّرقاوين، تعشق التراب الذي يسير عليه، وتقبّل يديه في كلّ مرّة يضمّها بين ذراعيه لا تصدّق ما يحصل إذ يتقدّم لخطبتها، تقول لي:
- اقرصيني، لا أصدق.

تقف، وتزغرد طويلاً بين زميلاتها في المدرسة، تحمل لهن الحلوى ثلاثة أيام متواصلة.
بعد الحادثة أصابها الحمى، ودخلت المستشفى، بقيت أسبوعاً، خرجت ذاهلة، كلّ شيء يضحكها، كلّ شيء يبكيها.

في ساعات الفراغ، تبقى تنظر إلى الكلمات بين السّطور، قلمها لا يتحرّك، أتركها حيناً، ربع ساعة، نصف ساعة، قلمها جامد، وبصرها يحدّق في الفراغ، أقترّب منها، يدي تربّت كتفها برقة:
- ها، أين أصبحت؟

- لو يأتي فقط، أسأله أما كان ذاك حقيقياً؟
أحتضنها خفيفاً:

- تعالي نشرب القهوة.

- كان يحبّها مرّة.

أقول، والحنق يخنقني:

- طظّ، انهضي، تجلسين كالبلهاء، يه، ما بك؟

تدمع عيناها، أشفق من قسوتي، أقول لها:

- لا رجل في الدنيا يستحقّ دمعة.

- أنظروا من يتكلم.

خدرٌ في عضلات جسدي، أنقلب على ظهري، أستردّ أنفاسي، أنظرُ السّماء الصّافية، صدري يعلو ويهبط لكن باستكانة، خدر السّباحة اللذيذ يتمدد في كلّ عضلاتي، ذراعي، ساقي، ظهري، عنقي، السّباحة رياضة عظيمة. مسام جلدي تتراخي، تتفتح، تشنّد، أستطعم جسدي، يختلف مذاقه بعد هذه السّباحة المتواصلة.

من عام تغيّرت نادبة باءء ءرفض السبابة معي؁ وءرفض ارءءاء المايوه.

[7]

كنتُ قد شارفتُ على إنهاء عشاءي حين اقتربتُ من طاولتي؛ لا تحمل صحناً في يدها:

- بإمكانني مشاركتك الجلسة؟

أبتسم لها:

- طبعاً، تفضلي.

- مضبوط إذاً، أنتِ لبنانية؟!

- نعم، أنا كذلك.

سحبت الكرسي بقوة، ألفت بثقلها عليه، وجهها احتلَّ الجلسة وحاصرني.

- محسوبتك تريز، لا يمكن لعيني أن تخطئ أعرُف ذلك.

منذُ لمحتك قلت لجوزيف إنها لبنانية، عيني لا تخطئ أبداً، أعرُف اللبنانيين من بين ملايين البشر، جماعة class وحلوين متلك، بسّ مضى عليك يومان وأنت تجلسين وحدك في هذه الزاوية، كأنك معاقبة، هل تُعاقبين نفسك؟

لا، لا تفعلين، أنت وحدك هنا؟... وتلبسين الأسود، منذ رأيتك، لائق عليك، كنت تلبسينه أليس كذلك؟ أرملة طازجة، هاهاها، عفواً، أقصد هل فقدت زوجك حديثاً؟ لا، الحمد لله، لا ليس زوجك، لكنك في فترة حداد؟ أجل، أجل، هذا واضح، وجهك يبدو class لكنه حزين، حزين رغم أنك تبتسمين لي الآن، أبوك؟ أمك؟ لا، إنه أخوك. موجه، إنه موتٌ موجه، صغيرٌ أم كبير؟ في الثامنة والأربعين، يا حرام، شبّ. أين مات في لبنان؟ أين تقولين؟ في أميركا، نيّاله، كان يعيش هناك. يا ليتني أموت في أميركا، أكيد الموت هناك له نكهة أخرى، ولكن ما لنا ولحديث الموت؟ أنا انتقلت إلى طاولتك لنتسلى قليلاً، لا لنحزن ونغتمّ. جوزيف، يقبر قلبي، يحبّ لعب طاولة النرد، وجد أحق مثله يشاركه هذه الهواية، لا أطيقها بصراحة، يقرقع صوت أحجارها في رأسي، لكنني أحترمها، أحترمها كثيراً لأنها تريحني منه بين فترةٍ وأخرى، الرجال لا يُطاقون أحياناً، يجب أن نرتاح. نحن النساء، منهم قليلاً، لم لانزال نجلس هنا؟

نسيت، قلتُ في نفسي اخرجي معها إلى الحديقة الجميلة، تغيير جوّ، نجلس هناك، انظري تلك الطاولة فارغة من الزبائن، تعالي تعالي، سنتسلى، لكن علينا أن نحمل معنا صحنى Dessert هناك، ترين تلك الطاولة المستطيلة، عليها أنواع حلويات هائلة، يعجبني هذا الأوتيل، ماذا لا تحبين الحلوى؟ تفضلين الفاكهة؟ لا بأس، خذي راحتك، أنا أفضل الحلوى، يايّ كم أحبّ Tarte والقطايف Tiramisu ، وما هذا كاتو؟ أحبّه كذلك، وقطعة صغيرة من Cheese cake ، عال عال، اخترت فاكهتك، لا، لا، لم تعجبيني أبداً، لا تأكلين بشهية، فقط نفاحة وخصلة عنب؟ تخافين من البدانة؟ زوجك يحبّك نحيلة؟ على كلّ اسم الله عليك نحيلة أم سمينة، أنت جميلة. ها ما رأيك بالجلسة هنا؟ أليست أفضل من جلستك الأولى؟ بلى، أكيد، أكيد، وجهك الآن أكثر إشراقاً، لم تقولي بعد أنت هنا تستجمين ها؟... نعم، نعم برا؟، وأنا كذلك، أحبّ المرأة التي تدلل نفسها،

لكنني كذلك أعمل، لا أكتفي بالاستجمام I'm a business woman عندي محلّ للملابس الجاهزة، مرّ عليّ أسبوع وأنا أنتقل من محل إلى محلّ كان يجب أن أقصد استانبول، هناك محلات الجملة واللقطات، لكنني قلت نقصد مارماريس أضرب عصفورين بحجر واحد. ماذا؟ لا، لا، أشتريها جميعاً من هنا، هذه البضاعة لها زبائنها، أشتري كمّاً منها في الـ Sale لزبائن بأعينهم، وأشتري البعض الآخر من مصانع في بيروت، والضاحية، تعرفينها، هناك اليد العاملة رخيصة، وكل شيء رخيص، وفي هناك ناس لا بأس بهم، أجل، لا بأس بهم، بعضهم أصحابي، على كلّ وهذا سرّ لا أقوله لأيّ كان نحن من يقوم فيما بعد بالصاق mark عليها، واحدة تركية، واحدة مغربية وأحياناً أقول إيطالية، وذلك للبضاعة النّظيفة، في طبعاً، نعم، نعم، لا تستغربي، ونحن نراعي بذلك نفسيات زبائننا حبيبتني، أنت تعرفين طبعاً أن اللبنانيين يموتون بالماركات، غرامهم في الواقع، يحبّون كلّ ما هو أجنبي، كلّ فرنجي عندهم برنجي، هاهاها، يرتاحون كذلك، وأنا أريد إراحتهم. عن ماذا تسألين؟ تسألين عن محليّ؟ متى فتحته؟ لا، ليس منذ زمن بعيد، منذ عشر سنوات فقط نعم، نعم في منطقة الأشرفية، ما بدو مين يقلك، ماذا كنت أعمل قبل ذلك، كنت معلّمة، أعلم الفرنسية في مدرسة خاصّة، أعلم الأولاد الصّغار، يعني المرحلة الابتدائية: وجع قلب ووجع رقبة وراس ومفاصل، واللي بيعجبك، وفوق ذلك أتقاضى راتباً سخيفاً، لا يكفيني حتى منتصف الشهر، ما كلّه غالي ببلدنا، حبيبتني، كلّه غالي إلاّ البني آدم رخيص، بلد للسّارقين والحرامية، وليس للأوادم، الأدمي بياكلها بالعتيقة، أكيد، أكيد، التجارة أفضل من التعليم، به، طبعاً، هذا سؤال يُسأل حبيبتني؟ ولو، كلك نظر. ما في نسبة، التعليم مهنة بائرة، ها أنت كذلك معلّمة، كنت؟ لا يبدو عليك، لا أعرف، لكن لا يبدو عليك، المهم، التجارة أفضل صدقيني، مليون بالمية، أصلاً نحن بلد تجارة وخدمات، بالدم يعني، واسألي من تريدين، واقراي التاريخ والجغرافيا كذلك، على فكرة أنا أحبّ التاريخ، تسليني قراءته، ولاسيما قراءة الأمجاد، وبلدنا حافل بها، اسأليني، الآن لم أعد أقرأ شيئاً، اكتفيت، فقط بتّ أقرأ الأقمشة والأسعار، وعيون البشر. تعرفين العيون هي السرّ وهي المفتاح. من عيني الزبونة أعرف إن كانت ستشتري، أم أنّها تحاول تفحص البضاعة فقط، ومن رقصة أجانها أدرك إذا ناسبها السّعر، أم وجدته مرتفعاً، ومتى لاحظت أنّها مليانة وجلدها يحتمل أسلخها عندها بالسّعر، وأسلخ جلدها، وجلد اللّي خلفوها، لا، لا مش حرام هذه تجارة وشطارة.

أصلاً مثل هذه لا تعمل، وحياتك لا تعمل، لكانت قدّرت قيمة القرش، هذه يكون لديها ذكر فحل، يده طويلة، ويمكن كلّ شيء يكون فيه طويلاً، هاهاها، يسرق من الناس ويعطيها، ويريدها أن تملأ عينيه من النعمة التي يقدحها عليها، يطلب منها أن تشتري أحلى ما تجد، وأغلى ما تجد، أو ربّما تكون هي صاحبة الفذلّة، هل تصدقين يا حبيبتني أنّ بعضهنّ مهما رفعت السّعر، تبقى تحاور وتناور لتشتري أغلى ما في المحل، قطعة لا أخت لها، عقدة، لا تريد لغيرها أن تلبس مثلها، حالة نفسية؟ لا تضحكي، لكن تعرفين وجهك أحلى هكذا، أجل، أجل، اضحكي ما بدا لك، شغلني الحديث معك، لم أكل شيئاً بعد، همّ، الـ tarte رائع، لا تحبينه، مسكينة أهمّ متع الدّنيا، الطّعام اللذيذ، ليس متعتك الأولى؟ ماذا الجنس؟ كمان لأ، كاذبة فعلاً، ما الذي يمتعك إذاً؟ تعودين إلى الضحك، انظري أنا شخصياً أحبّ هاتين المتعتين رغم أنّ جوزيف بات كالثور في الفراش ينخر على الفاضي والمليان، يعني نحن ستات ونفهم بعضنا، لكن لا بأس الأولاد يستون الفراغ، آه لا أولاد عندك؟ زعّلتيني. ماذا تقولين، لا ليست آخر الدّنيا، أيّ نعم هم «زينة الحياة الدّنيا»، وهذه العبارة ترددها عندي دائماً زبونة منهم، تشتري ملابسها وملابس ابنتها من عندي، يعني بعضهم يفهم كمان، لكن الحياة بدونهم تمشي كذلك، أعني الأولاد، أيضاً بدون أولئك تفهمين قصدي طبعاً،

تبدین ذکیة، هو هذا وهذا، نعم نعم القلب والعقل، هما یصنعان کلّ شیء: الحزن والسعادة، الفرح والألم، لا تتکلمین كثيراً، لا تحببین الثرثرة، أنا لا أتکلم كثيراً عادة، لكنني أحببتک بمجرد أن رأیتک، قلت لجوزیف سأتحرش بها، لم أردّ علیه طبعاً، هو یحبّ أن یبقی فی حاله، غشیم، الجنة من دون ناس ما بنتداس.

أنا أحبّ الناس كثيراً، ربّما هي مهنتي، لكن لا أنا أحبّ الناس، سأخذ رقم تلفونک، وأعطیک رقم تلفوني، ونلتقي فی بیروت دائماً، وتشتري کلّ ما تريدين من عندي، أحلی بضاعة والله، لم تقولي لي کیف مات أخوک، تس لا تريدين فتح الموضوع، لا بأس أعتذر، وزوجک لم یرافقک، تريدين الانفراد بذاتک؟ بیصیر، أفضل من وقت لآخر ضروري، الزواج بلفة، بوزک ببوزه کلّ الوقت، اسأليني أنا خصوصاً بعد أن یطیر الأبناء، أنت أصغر مني، أعلم یبدو علیک، فی الثامنة والثلاثين أو فی الأربعين، نعم، نعم أصبث مجدداً، لكنک ما شاء الله العذرا تحمیک. ماذا أقول؟ جميلة الأعمی یرى ذلك، وجسمک لیس، أنت مری علی المحلّ وسترين کیف أجعلک Style ، قطعة غیر شکل. ماذا زبائني؟ أكید، أكید هم متوعون، من کلّ الطوائف بتشوفي عندي مواردنا ومسلمين ودروز، الثياب لیس لها هوية، مهنتي عابرة للطوائف والحواز والمناطق هاهاها، وأنا ألاف الجميع، طبعاً لا أحبّ الجميع، قلبي لا یتحمل، لكنني ألافهم طالما یشترون، المهم هو البیع، أبيع كثيراً وحياتک، حتّى لو ربحت قليلاً أحياناً، لكن الحركة بركة، أفضل من لا شیء هكذا یشتهر محلی، یقصدونني من کلّ مكان، خصوصاً من هناك من الناحية الأخری، بات معهم أموال ها، تعیرت الأحوال، أموال كثيرة لكنهم یبقون بحاجة إلینا، الذوق عندنا حبیبتي، والترتيب لنا، أصلاً هم یعترفون بهذا الأمر، لیس سرّاً یعنی، هذه الحالة مؤقتة وحياة عینیک، كله بعدین یرجع لأصله، بعدین صدقيني، هذه حالة مؤقتة، أنت تضحکین یا عزیزتي لأنک تضعین حدوداً حاسمة بینک و بین التاريخ، وهذا خطأ فادح یا صدیقتي، ماذا أقول؟ نعم، هذه حالة مؤقتة، الحاصل غیر طبیعی بالمرّة، یه طوشتک رأسک، ألسّت مزعوجة، بتعرفي أنك مهزومة، یلاً نحن نتسلی، نقطع الوقت قبل أن یقطعنا، هاتفک یرن، لديك اتصال، لا، لا خذي راحتک، من یتصل بک فی هذا الوقت المتأخر؟ أكید زوجک، یفتقدک، سریره بارد بدونک هاهاها، یقطعني، لن أتکلم بعد الآن، لا، لا أنهی مکالمتک، أنت قليلة الکلام، إنها ابنة أختک نیرمین تطمئن علیک، لیس زوجک إذا؟ تحببنيها کابنتک تماماً، فی الثانية والعشرين، أحلی عمر، نعم، هه صحافية، حلو، شغلة حلوة، بس علی الفاضي، کلّه کلام، لا یقدّم ولا یؤخر، لو کان الکلام یؤثر، لکنّا فی غیر حال، لكنهم یکتبون شیئاً ویفعلون أشياء أخرى، شعب کذاب وحکام أكذب منهم، طوشتک رأسک، بتحبني نقوم نمشي شوي یا، یا تفضلي، تفضلي، بقوم غ مهلي یا عدرا، ها، لم تقولي لي بعد ما اسمک؟ ها، لم أسمع ماذا قلت؟ فاطمة، حقاً؟ مش مبین علیک أنك فاطمة، لا، لا ما تواخذيني، مش قادرة قوم امشي، یمكن من كثرة الکلام الذي بصفته، سامحيني، بدي شوف جوزیف وین صار، ألق علیه حين یطول الوقت الفاصل بیننا، یقبر قلبي، لیس له غیري فی هذه الأرض، وأنا لیس لي غیره، وأنت فاطمة، وتبدین نعسانة بتعرفي: تغيّر وجهک، دَبَل، یلاً ارتاحي الیوم، لا لا لم یعد وجهک مشرقاً بالمرّة كما رأیته من قبل، ارتاحي الیوم وبکره بشوفک، انبسطت بسهرتک، یلاً Bonne nuit ، وما تواخذيني حبیبتي طوشتک رأسک.

أتمدد على الكرسي الطويل على الشاطئ، أعرض جسدي لأشعة الشمس تلوحه، الساعة السابعة مساءً، بعضهم يبتسم لي حين يراني أفعل، خصوصاً أولئك الذين يفضلون أشعة الشمس حارقة لاسعة تحمر الظهر والصدور والأفخاذ، وكل ما تطاله بألسنتها، أهرب منها حينذاك، أحب أن أستقبل أشعتها عند هذا الوقت، وهي تقترب بلطافة من المغيب، تلامس جسدي برقة وبنعومة، آثارها تبدو خفيفة، لكن جذابة أحبها، أضع النظارات الشمسية على عيني، أهدق بهذا البحر الشاسع العظيم، وبلونه الأزرق الداكن الذي يخلب لبي كلما نظرت، أراقب السقوط الدراماتيكي للشمس في البحر، أراقبها بدقة في انحدارها نحو المغيب، أفكر بالحياة التي تعطي وتأخذ بلا انقطاع، أتذكر بشراً كثيراً عرفهم كانت حياتهم قوية ساطعة كما تكون الشمس عند انتصاف النهار، ليغيبوا فيما بعد ويسقطوا في هوة ما أدرك أنسي بعد سرها، أتذكر في انفرادي مسعود، أخي الوحيد الذي أحببته دائماً قبل سفره، أحببته ربما لتواضعه، ربما لأنني أحسست دائماً أنه بحاجة إلي، وأحببته أكثر حين زرتة العام الماضي في بيته، حيث كان يقيم في أرض الأموال والأحلام التي لا تسقط أبداً، مسعود هادئ هناك، مستكين يقيم منذ خمسة وعشرين سنة، يخبرني وأخواتي أنه مرتاح جداً في البلاد الأميركية، وأنه يتمنى دائماً لو نتمكن نحن جميعاً من العيش معه هناك، ومن التعرف إلى أسرته وحياته.

Skype يخبرني مسعود، وهو يحادثنا عبر السكايب أنه سعيد في عمله ويبيدي لنا وجهاً سعيداً طافحاً بالابتسام، يخبرنا أن عمله في مصنع السيارات المتطور رائع يدرّ عليه أموالاً، يحمد ربّه عليها، وأنه يحسّ من خلال عمله هناك أنه يساهم في تطور العالم، وأن كل شحنة سيارات تخرج من ذلك المصنع العظيم، تجعله يشعر بأنه بطريقة أو بأخرى، يعني أنه أبوها، وأن له يداً جلي عليها، صعقتني رؤية مسعود هذا حين التقينا عن قرب، بدا لي هزياً مصفراً يسلم عليّ بخجل حين التقاني، ويعرّفني على أسرته بتردد، سيلين زوجته المرتفعة ذات الأكتاف الطويلة العريضة، أجناس وأعراق بشرية عديدة تلاقت وتناستت فأنجبتها بعد قرون، ربنت على كتفي بمودة كادت تهزّ قدمي، بمجرد أن لمحتها فهمت سبب صفرة أخي وهزاله، الابنة شارلي اكتفت بمصافحتي بسرعة، ثم اختفت في غرفتها، أما ولداه الصبيان، ابنا الأخ الوحيد لديّ، الذكر الوحيد الذي تبقى لي ولأخواتي البنات من أسرة والدي، وبقيت زمناً أوقن أنه سند ظهري المرتقب، فهما نيك وجون، اكتفيا بهزّ رأسيهما بالتحية، والوالد يعرفهما إليّ، العمّة التي تأتي من بلادها البعيدة، وتسافر في الطائرة مدة ثلاث عشرة ساعة حتى تراهما، وتتحمل تشنّج عمودها الفقريّ وكلّ عضلة من عضلات ساقبها الجميلتين؛ حرّكا يديهما كيفما اتفق، ثم انطلقا لبعض شأنهما، غابا ساعات، وساعات لأتقي بهما بعد ذلك صدفة، يقولان هاي، ويهرولان بسرعة من أمامي، كأن بي ما يُعدي، أمّا القبضتان الحديديتان اللتان أجادتا الإمساك بي هناك فقد كانتا للعملاقة سيلين، نفرّغت لي أحياناً لتقودني بيديها القويتين داخل المنزل، وأحياناً خارجه، تصطحبني في بعض الأوقات إلى الحدائق العامة، وفي أوقاتٍ أخرى تعدّو بي إلى المولات لتشتري في غالب الأحيان كميات هائلة من الأطعمة المعلبة والطازجة والمشروبات الروحية والغازية، وأحياناً قليلة تصطحبني إلى محال الثياب بدعوى أنها تريد إرسال بعض الملابس لأخواتي كما أوصاها مسعود، فإذا بها تتلّهى

بالبحث عن المقاسات الكبيرة التي تلائمها، وتتركني أنا أحاسب وأدفع ثمن المشتريات التي أكون قد انتقيتها لأخواتي، على اعتبار أنني أعرفهن أكثر منها مقاساً ومذاقاً للألبسة.

وحين أعلنت لمسعود أنني أرغب برؤيته على انفراد، وبقضاء بعض الوقت معه، وحدنا دون شريك من شركائه الجدد، ضحك بطيبته المعهودة، وقال لي:

- حسناً، غداً تذهبين معي إلى الشركة الكبيرة، المصنع الكبير.

في اليوم الثاني قصدت مع أخي المصنع، مصنع السيارات الذي وجدته هائلاً في ضخامته، وفي اتساعه، هائلاً بمشهد السيارات الكثيرة المتوقفة في أنحاء منه، هذا الإحساس بالضخامة والفخامة استحال بسرعة مخيفة إلى شعور مُخزٍ بالضآلة، ومسعود يستوقفني ممسكاً يدي مشيراً إلى نقطة معينة توقف عندها قائلاً لي بابتسام:

- هنا،

ونظرت الصفّ الطويل....

صفّ طويل، طويل، طويل... لم أستطع رؤية آخره، صف هو أشبه بطريق رفيع قليل العرض، قد جعلت قواطع معدنية عليها آثار أصابع كثيرة بين مسافات متساوية منه، وأمام المسافة بين القاطع والآخر، يقف موظف هزيل كمسعود، في نفس قامته المتوسطة أو أكثر ارتفاعاً منه، مشابه له في صفرته، وفي شحوب وجهه ليقوم بعمل محدد بسيط، لا يتغيّر، يكرره طوال سنوات، طوال النهار، طوال النهارات، طوال الأشهر، طوال الأسابيع كما أخبرني أخي.

جلست طوال الفترة الصّباحية هناك إلى جوار مسعود، أرقب أصابعه الدّقيقة وهي تقوم بعملها، أرقب قسّمات وجهه القانع المرتاح، وهو يحادثني بين فترة وأخرى، وعينه لا تغادر ما بين يديه، بقيت حتى استراحة الغداء عند الواحدة ظهراً، تولى مسعود إعادتي إلى المنزل، وقد كاد رأسي ينفجر بعدما راقبت أخي حوالي خمس ساعات، وهو يتفحص نوعاً واحداً محدداً من البراغي - أي والله من البراغي فقط - الجيدة منها يضعها في علبة خضراء، لاحظوا اللون، وغير المستوية يضعها في علبة حمراء، أي والله، تنتقل العلبة بعدها إلى الموظف التالي: الخضراء للاستعمال والأخرى للتسوية. هذا هو عمل مسعود الذي قضى عمره في بلاد التطور والحداثة والتكنولوجيا، يقوم به بإخلاص ودأب وصمت طوال خمسة وعشرين سنة!! يفرز البراغي الجيدة منها، ويبعدها عن تلك التي لا يُحسن استعمالها، لأنّ صنعها غير متقن، ويرعى أسرته الرباعية الامتداد، ويقدم الأموال البسيطة التي يجنيها إلى سيلين لتتولى هي إدارتها، وإنفاقها على الأطعمة التي تضمن استمرارها وتناميها بالدرجة الأولى وتؤمن لها مزيداً من الازدهار. سألني مسعود قبل أن أنزل من السيارة الجيب، بعد أن أعادني إلى المنزل:

- ها ما رأيك بهذه الصّباحية؟

وجهه يضيء بابتسامة طيبة، أو ربّما بلهاء.

أجيبه، وأنا أشيح بوجهي:

- رائعة.

أذكر أنني حلمت ليلاً، ليل ذلك النهار الذي زرت فيه مصنع مسعود، أو ما يعتبره مصنعه، حلمت أنني تحولت برغياً أخضر اللون، حمله مسعود في يده متثاقلاً ثم ثبتته، وراح يدقّه بمطرقة حديدية، يدقّه ويدقّه، ليحشره حشراً في لوح حديديّ ضخم، والبرغي لا ينغرز مقدار شعرة، ومسعود يوالي طرقه على رأس البرغي، رأسي، الذي شعرت به يتحطّم وينزّ المأ وصراخاً أرعن، صراخاً استيقظت معه مذعورة، أنفاسي تتلاحق كأني أعدو أميالاً، وقد قرّرت في منتصف الليل أنني سأسرّع العودة إلى بلادي، وقد استسغتُ عندها طرق حيّان الذي كنت قد هربت منه، بدا لي أخفّ وطأة، وأكثر رحمة من المطرقة الحديدية الأميركية.

حاول مسعود أن يثنيني عن عزمي، وأن يرغّبني بالبقاء هناك، والحصول على الـ «غرين كارت»، وبعدها على الجنسية وبعدها... لكنني عزفت عن كلّ ذلك، وأحسست بشوق عارم إلى لبنان الذي غادرته، وأنا ألعن كلّ ما فيه، وكلّ من فيه، وكلّ ما يجري على أرضه من مهازل. أتذكر مسعود بطيبته وبحياده، وبسقوطه الهادئ بلا ضجيج، تماماً كما تسقط هذه الشمس الآن بخفّة متناهية خلف بحر لا ندري ما بعده، لتسقط ويسقط معها في سواد لا ندرك كنهه.

الزّهوة التي تخلّفها أشعة الشمس الغاربة تنكمش بتوالٍ، جسدي يغادره دفء الشمس لتلقّه برودة خفيفة، ما أدري إن كانت برودة الطقس خارجاً، أم هو صقيع الذكرى، لا لم تكن حياة مسعود مشعّة قوية، كما حاول أن يصوّرنا لنا، وهو يهاتفنا من بعيد، لكنّ ألم غيابه هو القويّ في داخلي، يترك فيه لوناً مختلفاً، تماماً كهذا اللون الذي يكتسبه جلدي وأنا أعرضه لأشعة الشمس، هادئ لكنه مختلف ليس لوني الأصل الذي أعرفه.

[9]

إنه اليوم الخامس لي في مارماريس...

أفكر بأنه ما كان عليّ أن أحضر بمفردي إلى هذا المكان، الحياة ههنا تتلاقى، وتتلاقح، وتتوالد أفرحاً وضحكاً ونكاتاً وجلسات.

لا مكان في هذه المدينة للتوحّد والانفراد. كان يجب أن أصطحب معي نادية، نيرمين أو جمانة أو أيّ مخلوق آخر.

تتوالى الرسائل عبر المحمول، نادية تكادُ تخبرني بكلّ تفاصيل نهارها:

- الآن تتناول الغداء.

- عند الخامسة ستلتقي نهى وسعاد وجمانة، وصديقات جديداً.

- منذ ساعة بدأت الحفريات أمام منزلي.

- أشاهد الآن مسلسل باب إدريس.

- أستمع إلى رامي عيَّاش الآن، الفيديو الأخير له تعقيد.

لا تكاد تنسى تفصيلاً، أضحك، ولا ألزم نفسي بالردّ على كلّ رسائلها.

نيرمين تفعل الشيء عينه، لكنها ترفق رسائلها القصيرة بلهفة لا تخفى، تتصرّف كابنة بارّة تخاف على أمّها.

- انتبهني لنفسك.

- كُلي جيّداً.

- لا ترهقي أنفاسك بالسِّباحة، أعرف أنّ نفسك قصير...

تُشعرني دائماً بأنّها تخاف عليّ ربّما لأنّها الوحيدة التي لازمتني في كلّ تفاصيل مرضي وعلاجي، وعايّنت نوبات جنوني وشفائي وقبل ذلك انهيارني.

اليوم سأستحمّ على الطريقة التركية - حمام تركي - قلت لنادية ذلك على سبيل التفكّه، لكنني بعد وقت وجدت الفكرة تروقني، فرصة أن أمارس ما أسمع عنه.

- أجل، ولمّ لا؟

قصدت صالة Spa ، اتفقت على موعد مع الصبّية التي سترافقني إلى نعيم الحمام التركي.

كنت أسخر بيني وبين نفسي من الفكرة، لكنني بعد وقت استجذتُها. الحمام متنسّج نظيف لطيف الجوّ، قبّته عالية فيها دوائر صغيرة من الزجاج الملوّن، الإضاءة فيه خافتة، سهّلت عليّ التخلّي عن ملابسي، أبقيت على قطعة داخلية واحدة، ثمّ طلبت مني تلك الصبّية الاستلقاء على الرّخامة المتسعة البيضاء، بعدها راحت تصبّ المياه الدافئة على جسدي، تصبّ المياه بكميّات كبيرة متتالية

بنشاط وبهمة كأنها تنجز مهمة رسمية، ثم راحت تغطيني بكميات من رغوة الصابون الناعمة الهشة، رغوة بيضاء كثيفة نقّادة الرائحة، تنزلق على جسدي بنعومة ما بعدها. يعود إليّ إحساس الطفولة من جديد، تدعكني يداها المرّة تلو المرّة، ثم تعود تغطيني بالرّغوة الهشة التّلاجية، وتدعك من جديد.

جسدي يتراخى ويتمدد، يستطعم الدّفء واللّدانة، ويستمرئ المياه النظيفة الدّفّاقة تدفّق الحياة في عروقي، رغم محاولات حيّان، أعترف لذاتي بأنّ استمرار الصّراع حمقٌ ما بعده، ينزرع في ذاتي إحساسٌ متفّاقم بقيمة الزمن، وبكيف نحياه.

ينتهي الحمام الدّافئ، أسترخي وأغمض عينيّ بعد أن ألتفتّ بالمنشفة الكبيرة، أروح في إغفاءة لذيذة لطيفة، أريد أن يبقى دماغي مغفياً طوال الوقت.

حين عدتُ إلى غرفتي بعد حوالى السّاعتين كانت نادية قد بعثت برسالة جديدة.

- «أخبرتكَ أنّ الحفريات قد بدأت أمام منزلنا، وأنّ الغبار اليوم يعلو حتّى يبلغ عنان السّماء، وأنّنا بتنا نستنشق غباراً، لا هواءً فيه ذرات الأوكسجين، أخبرتك أنّهم استيقظوا الآن فجأة في وزارة الأشغال، ليكتشفوا أنّ بلدتنا الصّغيرة، البلدة التي كانت وادعة قليلة السّكان، والتي تكاد تنفجر اليوم بساكنيها، وبالعمران الهائل الذي راح يقضم كلّ جغرافيتها، أنّ هذه البلدة مازالت دون شبكة للصّرف الصّحي، وأنّ عليهم أن ينفذوا مشروع حفريات فرعونية لهذه الغاية بالذات، ويدفنوا بعد ذلك في تربتها وفي طرقاتها أنابيب وخراطيم بمواصفات العشرين سنة الماضية، نمشي دائماً إلى الورا. إيّاك أن تحدّثيني أيتها السيدة الارستقراطية بعد الآن عن حيّان، تقولين إنه «مش ظابط» ما البلد كلّه مش ظابط، مسكين هذا الحيّان، على الأقلّ هو يجعلك تسافرين لتبتعدي قليلاً عن هذا الوحل. لا تقدرينه حقّ قدره، ضجيج الآلات يصمّ أذنيّ».

لم أجد في نفسي رغبة للردّ، قرأت ثمّ أطفأت الشّاشة، لا جديد في الكلام، مات الجديد هناك منذ ما يزيد عن ثلاثين سنة، والأسطوانة عينها تتكرّر، فوضى وردّالة وامتهان، ما عاد شيء يدهشني، والغريب في الأمر كوننا قد اعتدنا ذلك، والأكثر غرابة كوننا قد بتنا نتعامل مع غير الواقعيّ على أنّه الواقع الذي لا بديل عنه، تهافتٌ ما بعده.

سيصبحنا اليوم طوني في نزهة على القدمين إلى الماريننا، تحديداً إلى السّاحة التي يتم فيها صنع السّجاد اليدويّ، متحمّسة أنا لتلك الزيارة.

قال: ننتقل عند التاسعة، بعد تناول العشاء. الفكرة تروقني، اختلاف.

السّاحة متسعةٌ فسيحة، أناسٌ ريفيون يتوزّعون الأنحاء، بعضهم يجلس أمام أوعية نحاسيّة كبيرة، فيها ماء يغلي، يتصاعد بخاره، يسقطون كميات من الصّوف الأبيض فيها، يبقونها وقتاً، بعدها يخرجونها بألوان مختلفة، أزرق، أخضر نبيذي غامق، بنيّ، عسليّ... ثم ترفع وتوضع في مصافٍ كبيرة، وتترك لتجفّ مياهها.

البعض الآخر يغزل كميات من الصّوف الملون الجاف، يحيلها خيطاناً مستوية على مغزل كبير يلقّها ويرسم دوائر متكررة تغريني بالنظر إليها مراراً وتكراراً، تحضر الأفاصيص إلى رأسي وأنا أراهم يغزلون، أفاصيص من زمن الطفولة الطيب المستقرّة في نخاعي الشوكي، ثمّة مجموعة من النساء يتولين عملية النسج اليدوي، والحيّاكة على الخيطان الطويلة المشدودة إلى أطر خشبية

كبيرة، مجموعات تقوم بنشر سجاد انتهت حياكته للتو، وأخرى تقوم بتعليق سجاجيد عجمية للعرض، تضعها على شرفات وطبئة تحيط بالساحة بشكل نصف دائري. ورشة حقيقية لإنتاج الجمال، الحياة تتبع من بين الأذرع والأصابع، أحببت هذا الإنتاج الجماعي للفن، وأحببت العبق المتصاعد من المكان.

الناس يتجمعون حول تلك المجموعات، وينفضّون بعضهم يسأل عن الأثمان، يجدها مرتفعة فينصرف، بعضهم ينظر ويدقق ويسأل طوني وسواه عن التفاصيل، يجيب عن بعض الأسئلة، يهمل أخرى لا يعرفها، ثمّة من كان مهتماً لمعرفة كلّ المراحل التي تمرّ بها هذه الحرفة الجميلة، يقف أمام كلّ مجموعة يبصر، يلاحظ، يستفسر ويستحسن، أنا كنت اليوم واحدة من هؤلاء، أعجبتني ما رأيت في هذه الساحة، قد أعود غداً إلى هنا بمفردي، وقد أشتري قطعاً صغيرة هدايا لأخواتي ولنادية ونيرمين وجومانة، قطعاً أعجبتني أحتفظ من خلالها بعبق المكان، للأماكن روائح تناديك، وبعضنا يحبّ النداء. تنكسر الأمكنة عندما تغيب عنها روائحها.

[10]

كان إرهاباً ليس إلا...

ربما كانت رائحة كذلك، رائحة بعينها، تلك التي انبعثت من الصندوق الذي حمل مسعوداً مجدداً إلينا.

ما أدري كم كانت الساعة، هل كانت الثامنة صباحاً، التاسعة، العاشرة، هل كان في الدنيا، أم كان في زمنٍ مقتطع من حياة أخرى؟ كل ما أدريه، وأوقن به أنني أحسست بجسد ثقيل يقف إلى جوارِي، قريباً من أنفاسي، لا تسألوني لم هو ثقيل هكذا، شعرتُ بوطأة ثقله، وقد وقف حاجباً الهواء عني.

قلت: إني أحلم...

أنا المخلوقة المصنوعة، لولا قليلٍ، من حُلمٍ، لكنّ الهواء استمرّ ثقيلًا يلتفّ حولي، انسربت رائحة إلى أنفي أعرفها، أذكرها غصباً عني، رغم أنني أحاول التهرب من التعرّف إليها، نحن والحواس، هي تتحكم بنا، أم نحن من يتحكم بها، أنا من يُحرّك بصري، أم بصري هو من يقودني؟ ليس هذا الأمر مهماً الآن، لا أهمية له البتّة، المهم أن أتمكن من فتح عينيّ المغلقتين بشدّة، أن أتمكن من إزاحة هذا الثقل الذي راح الآن يقترب مني أكثر. فتحتهما، ثمّ أغمضتهما، بعد ذلك انفتحتا دون أمر مني، كان ثمّة ما يلتصق أمامي بشدّة، هل هو رأس حيّان بصلعته اللماعة دائماً، وجهه المتورّد الملتصق، أسنانه البيضاء - التي قام بتبييضها أخيراً - القميص الأبيض النظيف، كان الضوء كثيفاً أمامي، الرائحة كثيفة، أغمضت عينيّ مجدداً، ربما غبت عن الوعي.

رأيت فيما يرى النائم نفسي وأخواتي، وقد تجمعن حول الصندوق الذي حمل لنا مسعود.

صندوقٌ عاد به من غربته بعد سبعة أيّام من الانتظار الطويل الممض، بعد أن أبلغتنا أسرته بموته الفجائي، أتى بصحبة عرابته السيّدة سيلين، أصرت على مرافقته حتى مثواه الأخير، ابنة أصل طبعاً، تريد أن تطمئن على آخرته، كما حرصته في حياته، قالت، والدمعة المعلقة على جفنها لا تريد النزول.

سبعة أيام ننتظره وننتظرها، وهي تبعث بالرسائل عبر محمولها:

- غداً تنتهي الأوراق.

- لا، لم تنتهِ الأوراق الرّسمية بعد لإخراج الجثة، نحتاج تصاريح إضافية.

- المعاملات معقدة وهنا Yes ، Yes ، معقدة للغاية.

- الدّخول إلى هنا صعب، كذلك هو الخروج، ماذا تعتقدون؟ نزهة؟

وهي تحترم رغبتنا نحن البنات، نريد أن يُدفن مسعود بيننا، حُرّمتنا منه في الحياة الدّنيا، لعنا بذلك نلتقي به في الآخرة، هي كذلك متديّنة، وتفهم هذا الضرب من التفكير، تحترمه، ولذلك ستأتي به، الأولاد؟ لا لن يرافقوا أباهم إلى بلاد المنشأ، اكتفوا من الرّحلة القصيرة التي رافقهم خلالها، يكفي،

بزيادة، هي تقوم الآن بالواجب، وترافق الصندوق بحرصٍ ضنينٍ، تحرص على جثة مسعود كما حرصت على جسده سابقاً، فاعتصرته عسراً، حتى جفت، هكذا كنت أفكر مُذ انتهى إلينا خبر موته.

أقول لأخواتي:

- كيف مات هكذا فجأة؟ السنّة الماضية كان كالحصان حين تركته!

لكني في قرارة ذاتي أدرك أنه لم يكن بخير، أعوذ بالله، لا، لم يكن حصاناً، وجهه كان شاحباً، جسده شاحب، وكلّ ما فيه كذلك، مجرد ظلّ لما كان عليه قبل أن يغادرنا، ويقول إنه سعيد كان!

حين فُتح الصندوق بعد وصوله، وبعد الهرج والمرج الذي اشتعل لحظة إنزاله، وصراخنا نحن البنات بشكل متوالٍ، سُمح لنا برؤيته، كانت اليدان مضمومتين متشابكتين حول شهادة ملفوفة، سحبتها سيلين بتؤدة، وراحت تقرأها باعتزاز كليّ، ووجهها ينضح بالفخار.

- إنها شهادة تقدير من المصنع الكبير الذي كان يعمل فيه. يقَدرون إخلاصه وتفانيه طوال حياته القصيرة، يقَدرونه للغاية.

إلى جوار اليبدين وُضعت علبتان صغيرتان، على اليمين علبة خضراء، وعلى اليسار علبة حمراء، عليهما كلتيهما شارة المصنع، اشتملت كل منها على برغي بالموصفات المطلوبة تقديراً لشهامة الرجل، وعطاءاته.

فتحتهما الأرملة، امرأة أخي الوحيد، وأصرّت على أن نبصر ما بداخلهما، وانبعثت عندها رائحة حديدية غائمة، أغمي عليّ بمجرد رؤيتهما واستنشاقها، لم أتحمّل فكرة ملاحظتهما المرحوم حتى إلى تربته في لبنان، ولم يتقبل جهازي التنفسيّ تلك الرائحة الحديدية الملتبسة، فَعَامَ وعيي.

لكن الحق يُقال إن سيلين هذه كانت شهمة للغاية، وافقت على كلّ مراسيم الدفن الإسلامية، وحملت السبحة تضامناً معنا أكثر من مرّة في الليالي التي تلت نهار الدفن، والتي احتفلنا خلالها بذكرى المرحوم مسعود.

كان أكثر ما أُننت عليه من مظاهر الاهتمام الأسريّ، بالأخ المرحوم هو الموائد العامرة، تلك التي كانت تحضّر يومياً على الغداء وعند العشاء، تقدّم فيها أصناف الطعام اللبناني الشهي بتنوّعه وبمقبّلاته، هذا ولم تتوان المرأة عن إظهار احترامها الشديد لكلّ الأنواع اللذيذة التي قدّمت، ولا سيّما منها الأرز باللحم المحمّر، والتبولة الطّازجة والكبة النيئة، وقد أصرّت على تسجيل بعض الوصفات في فترات الاستراحة، حين تخفّ وطأة الزوار المعزّين خصوصاً بين الثالثة والرابعة عسراً.

قضيت أنا نصف فترة العزاء غائبة عن الوعي تقريباً، بعد أن شممت الرائحة، وفي كلّ مرّة تذكرت فيها مسعود، وضحكنا الخفيف المتواضع خلال تلك الزيارة التي كانت لي إلى أميركا العام الماضي.

أخواتي كنّ متأثرات، أختي الكبرى عليّة والوسطى نُهاد، لكن أختي الثالثة بدرية كانت أكثر متأثراً بنوعية المعزّين الذين يتوافدون، وبالسيارات الأنيقة التي تتوقف أمام ديارنا بين الفينة والأخرى،

لينزلقَ منها ذوو البزّات الفارهة، والعمّور الفوّاحة والسّاعات الذهبية، وقد أتوا بكامل أهميتهم، وأنافتهم، والتماعهم لتقديم واجب العزاء.

وبما أنني كنت الأقرب إلى قلب زوجته، وعلى اعتبار زيارتي لها في بيتها، وبما أنني كنت الأكثر انفعالاً وبكاءً يكاد يكون متواصلًا، فقد عنّ في بالها أنني الأكثر ملاءمة لطرح الموضوع معي، الموضوع الأكثر حساسية في هذه الحالة، عنيت به الناحية المادية.

- الكلفة My Darling ، كلفة شحن أخيكم.

- تعرفين أنه كلفني مبلغ أربعة عشر ألف دولار عدًا ونقدًا.

- لو دفنته هناك Darling ما كان كلفني بنسأً واحداً. تفهمين طبعاً ما أقول Right ؟

قيل لي فيما بعد أنّه قد أغمي عليّ مجدداً، وهي تحادثني محاولة إفهامي، وأنّ حيّان زوجي قد حملني إلى فراشي بعد أن تعهّد لزوجتي أخي بتسديد المبلغ، فلا داعي لقلقها أصلاً:

- لأنّ لا شيء يضيع عليها، نحن أناسٌ أصحاب ذمّة في الغالب، لو تدري.

وأنّ عليها أن تثق به هو بالذات، شرط ألا تفتح هذا الموضوع الحساس معي أنا بالذات مرّة أخرى، أعصابي لا تتحمل.

غادرت المرأة المحزونة لبنان وفي حقيبتها مبلغ خمسة عشر ألف دولار عدًا ونقدًا رافضة التفسير، مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ مقعدها يجب أن يكون First class نظراً لحزنها الشديد، ولحالتها النفسية لا الجسدية المتردية.

قضيت أياماً بعد مغادرتها في المستشفى، أصابتنني حمّى شديدة ورّجة، كنت أهلوس خلالها ساعات طويلة في الليل أو في النهار وأتحدّث عن البراغي والسيارات، وحرارة جسدي تتمرد على العلاج، فلا تنصاع لمحاولات خفضها؛ صرفت ثمانية أيام بلياليها أحارب الحمّى التي أمسكت بتلابيبي، ونيرمين ابنة أختي الحبيبة إلى جواربي ترفض أن تتركني، وتشفق عليّ من الرائحة التي أدعي كلّ الوقت أنّها تحاصر أنفي، وتكاد تخنقني، فتطبق على أنفاسي؛ وحين انتصرت في النهاية على حرارتي كان جسدي قد أنهك تماماً، وارتسمت هالتان سوداوان حول عينيّ اللوزيتين الجميلتين.

وما سارع في شفائي يقيني بأن زوجة أخي سليلة التجارب البشرية المتعاقبة لتمتتين الأنساب، قد غادرت لبنان بغير رجعة كما وعدت مسعود في زيارتها الأخيرة لقبره، إذ ودعته بحرارة فائقة وكادت تتنازل عن برودها، وتقبل الحجر الأبيض الرخاميّ الذي حفر عليه اسمه، معلنة سفرها بغير رجعة.

يدٌ تهزّني بشدّة، وكفّ تلامس خدي وتكاد تلطمه:

- فاطمة، فاطمة، هاي، أين أنت، ما بك؟

الرائحة اللعينة عينها تملأ خياشيمي، الهزّ المتواصل لجسدي يلزمني فتح عينيّ، أفتحهما مجدداً، يعي دماغي أنّه وجه حيّان يطلّ من فوق، ملتصعاً برّاقاً أحاطت به الرائحة التي تدوّخ حواسي كهالة دخانية شفافة لا يراها سواي، لكنها تغشي بصري وبصيرتي، وتكاد تزهب أنفاسي.

[11]

لماذا لم أرحل في كلّ المرّات التي كان بديهيّاً فيها أن أرحل...؟ اقشعرّ بدني، ونيرمين تجيبيني حين سألتها عن حيّان:

- إنّه هنا في البلدة، لا لم يسافر إلى مكان.

- متأكّدة؟

- فاطمة ما بك؟ طبعاً أنا متأكّدة، لقد رأيت البارحة، وسألته عنك كذلك؟

- ماذا قال؟

- بخير.

- ضحكت، وأنا أقفل المحمول.

- أجل أنا بخير، طالما أنا بعيدة عنه.

منذ الصّباح لم أعد كذلك، هل كان حقّاً في غرفتي، أنا أحلم، أم أنني أحيّا الحقيقة؟

كان إلى جوارني في الغرفة صباحاً، يحوم حول سريري، وأنفاسه تلمح وجهي، أم هي حواسي التي استحضرت بكّل هذه القوّة، وبهذه الوطأة التي لا تُردّ؟

غادرتُ سريري عند الحادية عشرة تماماً، تفحصت الفراش، الغرفة، الكنبه الجلدية التي أعجبتني، الشرفة الصّغيرة، حتى الستائر الزّهرية أزحتها، لم أجده، قلت لنفسي:

- لا بدّ أنّه في الحمام.

لم أجده.

جلست وقتاً، أسترّد أنفاسي، أريد أن أهدأ وأفكر.

قمتُ من مكاني، دخلت الحمام مجدّداً، أخذتُ دُشّاً ساخناً عساني أستيقظ حقّاً، ارتديت ملابس بعد أن استهلكت وقتاً في تجفيف جسدي وشعري من المياه. نزلت متمهّلة إلى منصة الاستقبال (Reception). الموظّف الذي يرتدي بزّة جميلة كأنه إحدى الشّخصيات الهامة يبتسم لي، ويحييني بلطافة، أسأله بخجل:

- أحدهم أتى لزيارتي؟

نفّي.

- هل فتح خادم باب غرفتي لزوجي مثلاً، هو وعدني أنّه سيلحق بي، وقد يفاجئني...

يهزّ رأسه أكثر من مرة، وهو يعلن:

- أنا هنا منذ السّادسة صباحاً سيدتي، لا أحد سأل عنك السيدة عسّاف أليس كذلك، الغرفة (404)، لا طبعاً، أنا أصدر الأوامر للعمّال ههنا إذا احتاجتهم أو إذا احتاجهم أحد.

ارتجّ جسدي.

بات حيّان يقيم في دماغي إذأ، ينبثق منه في اللحظة التي يشاء، في المكان الذي يريد.
ما يقارب الرّبّع قرن ذوّبت أطناناً من الوجود الزائد في التسوييف والانتظار والمراوحة، لا أغادر
ولا أقيم. أقول ليس الآن، انتظري بعد، عشرون عاماً أحيا في انتظار، الإنسان أحياناً تيسّر بلا
قرون.

كان يجب أن أفعل حين علمت بزواجه من تلك المرأة، غضبت وصرخت وشتمت، لاعنة الأرض
والسّماء، لكنني لم أقو على الرّحيل. حتى الآن أسأل نفسي لِمَ لم أفعل، بدل أن نأكل بعضنا
بالطريقة التي فعلنا، قضينا أيامنا وليالينا نتحفّز ونتوتّب، ونشذ السّكاكين ونعدّها، لا هو سمح لي
بالرّحيل، ولا أنا قطعت الجبال، بقيت معلّقة في الهواء، قدمي لا تطاولان الأرض، ورأسي عاجز
عن بلوغ السّماء، وإلى الجحيم نغدو كلّ يوم أنا وهو، عراكٌ على كلّ كبيرة وصغيرة و«لا» تلوح
دائماً على الشّفاه أطلقها ويطلقها عند كلّ اقتراح. وحين يُجنّ الليل، وحين يحركه الشّوق حيالي،
وتشتعل رغبته بي، ويطلّ الشّبق من عينيه، حين يعنّ على باله الاقتراب من جسدي الذي يئنّ
أتحول صنماً بارداً، ينحني هو على قدميه، يثور في وجهه، ينفخ، يعلو ويهبط، يلامس، يداعب،
يقبل ويشتمّ العبق ويفعل المستحيل، وكلّي تلجّ لا يذوب، ولا ينسال.

يجنّ عندها، يروح يلعن ويشتم ويسبّ كلّ الرجال، كلّ النساء، كلّ أصناف النساء.

أردّ ببرود:

- اذهب إليها، هناك ولي العهد، إبحث عنه في كل قيعانها، استمرّ بالحفر هناك حتى تخرجه، ههنا
يباب.

زرع الرجل نبتة سامّة بيننا، وقمت أنا بتربيتها وبسقايتها، والعناية بها في كلّ لحظة ودقيقة.

نادية تقول لي:

- مجنونة، تتركينه لها هكذا ببساطة بعد أن صنعتها، تنسحبين، هذه المملكة من صنعك وصنعه،
إيّاك أن تهربي. مجنونة لو بقي يحيى ههنا، لكنك أريته نجوم الظهر، لكنّ الجبان هرب، لكنّ إلى
أين؟ لو عاد بعد خمسين سنة أريك ماذا أفعل به، وكيف أعاقبه. صحيح أنني تزوجت، لكنّ حسابه
لم ينته بعد.

أنظرها ولا أراها، تعتقد أنني أعاقبه على زواجه، أعاقب نفسي في كلّ لحظة، وفي كلّ ثانية لأنني
لا أخذ القرار، لأنني لا أتسلّق الجدار الذي وضعه أمامي. خطّطت لحياتي بطريقة مختلفة، كلّ
الخطّ أفسدها، نلتقي دائماً، نستحيل بركانين يرميان الحمم في كلّ اتّجاه.

يغادر المنزل بعد أن يرجّ صرّاخه الجدران.

[12]

- مياه نقائنا ونقائنا الآخرين ترتفع حولنا عالية جداً.
- أحسدُ نادية أحياناً لزوجها من جَسَّار، رجلٌ ضاحك طيِّب، لا يحمل همَّ غده. رفضتُه بدايةً.
- إنه أمِّي يا فاطمة، لا يقرأ ولا يكتب، وأنا معي ماجستير، هل نسيت...؟
- طظّ، لا لم أنس، إنّه إنسانٌ طيِّب، وأنت تعرفين هذا الأمر أكثر منا جميعاً. ألم تعد الطيبة تكفي هذه الأيام جواز عبور للحياة؟
- ولكن... بائع صحون؟
- إنّه صاحب محلّ، وليس بائع صحون، يه، ما بك؟
- طواويس السرقات والعقارات الذين تزينهم أملك يتبجحون كلّ يوم بما ينيهون أفضل منه؟
- ولكن أنت تعرفين، يعني المسألة القديمة، ماذا أقول له؟
- لا تقولي شيئاً، إنّه يحبّك يا غشيمة، وهذا أهمّ ما في الأمر، كم مرّة طلب يدك حتى الآن، وهو يعرف أنك كنت بحكم المتزوجة، كأنك لا زلت في العشرين، يه، ما بك؟
- تحيا نادية بسعادة وسلام مع جَسَّار، يؤرّقها فقط انتظارها ليحيى، تريد أن تبصق في وجهه لترتاح، وأن تعاتبه، وأن تبهدله وأن وأن... لكي تستمتع تماماً بحياتها مع زوجها ومع ابنتيهما اللتين تدللها حتى العبادة... أطلب لها دائماً راحة النسيان.
- الهاتف يعلو صوته، الدبذبات تحمل صوت نادية، أقول في ذاتي:
- إبنة حلال والله.
- ها، كيف الحال اليوم؟
- سيء.
- لم، ما بك، مريضة أنت؟
- لا، نسيت أن أتناول الدواء.
- لا، إيّاك يا فاطمة أدوية الأعصاب حساسة للغاية، لا تهملّي مواقيت تناولها.
- أنا الآن أفضل، لا تقلقي، حصل شيء، أخبرك فيما بعد.
- كلنا في الهوا سواء، أنا مازلت غاضبة حتّى الآن أخبرك حتى أرتاح، للمرّة الأولى أصرخ في وجه المدير بهذا الشكل.
- تضحك بعصبية وتشنّج.
- خير ما بك؟

أسألها بلا لهفة للمعرفة.

- لا أدري كيف حصل ما حصل اليوم، ثمّة صدفة لثيمة تحوم في هذا النهار من أوله، حدثت عدة مسائل بسيطة كلها مرّت بسلام، لكن ما جرى بالضبط هو أن المدير كان يمرّ أمام صفّي، صف العلوم العامة كنت أشرح درس التربية، تعرفينه، أتحدث عن قانون العقوبات، وأفند أنواعها وفقاً للجرائم المرتكبة، أشرح مصطلحاتها وتصريفاتها، وأفصل القول في أنواع العقوبات، وأطرح أمثلة توضيحية تثبت المعلومات في أذهان الطلاب، فإذا بأحدهم قد راح يناكفني، وأنا أعدّد أنواع العقوبات وفق درجة الجريمة، كلما ذكرت عقاباً ضحك، وضرب كفاً بكفّ معلّفاً:

- يا حرام يا مس، هذا لا يمكن، هذا لا يحدث في بلادنا لا أحد يحاسب أحداً، تعلميننا يا حضرة المس كذباً وافتراءات، تضحكين على عقولنا، من يحاسب من في هذه البلاد؟؟ ها أنا أتحدّك أن تذكرني لنا جريمة تمّت المحاسبة عليها، ها، يلا اذكري...

على رأسي، كاد قلبي ينفجر، فقلت له بتحدّ وبسخرية:

- ألم يعلمك أبوك يا غشيم أننا في بلد لا نطبّق فيه أبداً ما نتعلمه؟؟ هذه معلومات للثقافة فقط وليست للتطبيق فأجابني بصفاقة وقحة:

- بلى هو علمني ذلك، وأنت تفسدين الآن تعليمي، ثمّ إيّاك أن تأتي على ذكر والدي في صفك، والدي أشرف منك ومن كل سلالتك، والدي أشرف الناس. أفلتت أعصابي مني، هدرت في وجهه:

- صحيح بدليل أنه أكبر سارقٍ وأكبر حرامي، وأكبر كذاب أهنتك به، رجلٌ شريفٌ حقاً.

قفز الولد من مكانه يريد التهجم عليّ.

- تخيلي يا فاطمة، تخيلي.

ويبدو أن المدير كان يستمع إلى الحوار الدائر بيننا، إذ وجدته قد قفز فوراً إلى داخل الصفّ، وقف كالممدوغ بيننا، أبعد الولد عني بعد أن هدّده بالضرب والأخير يصرخ:

- هي من تهجم عليّ، إنّها تهاجم والدي وتسبّه علناً أمام زملائي؛ في غرفة الإدارة دارت معركة حامية بيننا، أنا والمدير العتيد.

لازال غاضبة يا فاطمة، لا أعرف كيف أوقف فوران دمي، لا أدري كيف أفلتت أعصابي مني بهذه الطريقة، أخطأت، أليس كذلك؟ لكنني لم أتحمّل أن يناكفني الولد هكذا، وأنا أعرف أباه، وأعرف كمّ التجاوزات التي ارتكبتها حتى الآن، وأوقن أنه متنفّذ بقدره الرشاوى التي يبعثرها يميناً ويساراً، الفضائح فوقه وتحتّه، هو وسواه، ولا من حساب، إلى متى نستمرّ على هذه الحال؟ إلى متى يا فاطمة؟ لا مفرّ إلا في الحياة الأخرى، يتهمني المدير بكلّ لؤم بأنني غير تربوية، أنا التي أفنيت عمري أقوم الأخلاق، وأرشد النشء إلى المثلّ والقيم وكلّ هذه البضاعة النافقة في هذه الأيام، يقول لي بأنني غير تربوية، وإنني أطلق العنان لمشاعري الشخصية، ولحساباتي الشخصية، وإحساسي الدفين بالنقص، وأنني أنقس عن غضبي بالافتراء على الطلاب. أنا، أنا يا فاطمة؟ أفكر أن أشكوه ليحاسب على افتراءاته هذه، لكن إلى من سأشكوه، سيفتري المزيد عليّ، وربّما استعان بوالد ذلك الطالب سامحاً له بالانتقام مني، معقول، معقول أن نصل إلى هذا الدرك يا فاطمة؟ أكاد أجنّ، ساحت الأرض تحت أقدامنا، لا مفاهيم مشتركة بيننا وبين هؤلاء الأهل الجدد، يُسوِّقون

لذهنية ثلاثهم يربون أولادهم عليها، ويشرخون العلاقة التي كانت، أنا متعبة يا فاطمة، ما رأيك، لا أسمعك، لِمَ لا تجيبيني، هل مازلت معي؟ أنتظر حساب الآخرة ما رأيك؟

- أسمعك نادية، أنت تعلمين أنني تركت التعليم وانسحبت لأنني لم أعد أحتمل كل ذا، وأشياء أخرى، تضعيني أمام نفسي مجدداً، ألا يكفيني ما بي؟

لا بدّ أن نادية شعرت بالرجفة تسري في صوتي، فانطلق صوتها، وقد عادت نبرة القوة إليه:

- يه أنا آسفة، آسفة يا فاطمة، لا أدري ما بي، لا أعلم كيف أحدثك بهذه المواضيع عبر الهاتف، وأنت قد هربت من هذا العالم لأعيدك إليه، انسي حبيبتي كل ما قلت لك، أرجوك، انسيه تماماً، الله يقطعني، لا أدري من أين يطلع الكلام، مؤكد ليس من رأسي، أنا بلا راس اليوم، اسمعي...

- خلص نادية انتهينا، أحدثك فيما بعد، رأسي يؤلمني الآن.

أغلقت المحمول، ورميته بعيداً.

بقيت المسكينة خلال ما تبقى من النهار تبعث رسائل تطمئن بها على حالي، وأنا لا أجيب، بمجرد أن يرن المحمول أقرأ ال- Message ثم أغلقه، عند التاسعة مساءً بعثت لي بنكتة ديموقراطية، كما وصفتها، أضحككتني.

- كان قائدٌ يؤنب جندياً:

يا حماراً لا تفعل ذلك ثانية، فأجابه الأخير:

سيدنا، الله يخليك صار فيه ديموقراطية بالبلد، فلا تقل لي حماراً مرّة أخرى؟

- وماذا أقول لك؟

- سيدنا قل لي حيواناً، وأنا أختار.

أعجبتني النكتة، قرأتها أكثر من مرّة، مسّجت لها:

- مهضومة مثلك.

- الحمد لله، الآن استرحت.

ثمّة خبر آخر لديّ، لكنني سأتركه مفاجأة لك.

[13]

إنّه صباح اليوم السّابع، مارماريس الجميلة. الحياة تستيقظ بنعومة في أحنائها، في الفندق، الوجوه بشوشة لطيفة.

- Bonjour .

- Good Morning .

- صباح الخير.

هاي.

لطافة سائلة في المكان، تناولت فطوري، شوفان وزبيب وكوب من الحليب الدافئ. الكلّ حولي مطمئن رائق المزاج. كنت في الغرفة حين هاتفنتي نيرمين، أعلنت اشتياقها وإحساسها بطول الوقت في غيابي، ثمّ سألتني عن موعد عودتي، أخبرتها:

- إنني أعود غداً عند السادسة عصراً تقريباً.

قالت:

- حسناً، أحدّد إذاً، موعداً قريباً معه، بعد ثلاثة أيام، ما رأيك؟

- تحددين موعداً لماذا، ومع من؟

- مع صاحب الجريدة.

أخبرتني أنّ صاحب الجريدة التي تعمل فيها رفض نشر الأقصصتين اللتين كتبتهما، وأنها أرسلتهما إلى جريدة أخرى ناشئة عبر الفاكس، البارحة وصل الردّ، أعلن أنه يريد التعرف إليك قبل النشر، وأنّ الأقصصتين أعجبتاه جداً. المدير طبعاً.

قلت:

- حسناً.

ورحلتُ أحلم، سأعبر هذا الباب إذاً، ولسوف أتمكّن من الكتابة بعد الآن، سأجدُ ساحةً أمارس على أرضها الحياة بالطريقة التي ترضيني.

ولكن هل سيسمح لي حيّان بذلك، هل سيفسح لإسمي أن يعبر إلى الصّفحات المطبوعة. اليوم بات للرجل البسيط الذي تزوجته هيبية وسلطة، أصبح رجل سلطة معلومة، يعترض، ويوافق، يقول اللّا والنّعم، ويترك الأصدقاء ترنّ في الزوايا، وفي العلن. ما عاد بالإمكان تجاوزه بسهولة. سابقاً كانت المسألة أكثر سهولة، الآن نبتت للرجل الذي هو زوجي أنياب. لذلك أنا أحتاج حرباً صادقة أنهي بها حياتي، بدل الموت ببلاهة كأي هرة في جحر من جحوره.

قبل أن تطفئ المحمول، قالت لي نيرمين:

- تعالي بسرعة ثمّة مفاجأة تنتظرك.

- بخصوص الأقصوصتين.

- لا، لا بخصوص حبيبتيك نادية.
وَجَمْتُ.

- ماذا تركت الثانوية، اعتزلت التعليم بعد معركتها مع المدير؟

- لا، وضعت الحجاب على رأسها، يه أفسدت المفاجأة.

- ماذا، ماذا قلت؟ البارحة حادثتني، ولم تقل لي شيئاً كهذا!

- هي وضعت البارحة مساءً أصلاً. كان مفروضاً أن نلتقي أنا وسعاد ونهي وهي، تعرفين الشلّة إيّاها، نلتقي في D.T. نشاهد فيلم نادين لبكي الذي طوش الأرض (هلاً لوين)، على فكرة أعودُ مشاهدته معك، حضّري نفسك، ونتعشى بعد ذلك بمقهى (البلد)، أنهينا الفيلم ولم تأتِ، كُنّا قد بدأنا بتناول العشاء حين وصلت نادية، سعاد كانت تضع قطعة اللحم بعجين الرقيقة اللذيذة في فمها حين وصلت، شهقت فكادت تختنق بها، احترنا بمن نعنتي بسعاد أم بنادية، المهم توترت نادية في بداية الجلسة، ولم ترتح حتى غادرنا، كان ضحكها مشدوداً، تعرفينها، لا تستطيع إخفاء شيء، لكنها لم تقل الكثير، بصراحة لم أفهم ما يحصل، نسيت كان معها صديقة لا أعرفها...
- ولا أنا.

أُفقلت الهاتف، أطفأته، لا أريد سماع شيء بعد، تمدّدت على السرير، ساعة، ساعتين، ساعات، لا أتحرّك لا أفكر، ولا أمارس هوايتي بتحريك ساقني حين أكون في هذه الوضعية.
عصراً بدّلت ملابسي، ارتديت المايوه الأزرق، جعلت فستان البحر الملون فوقه، وانطلقت باتجاه الشاطئ.

السّاعة لم تتجاوز الخامسة، ومازالت أشعة الشمس حادّة، لكنني لم أطق ما كنت فيه، كان لا بدّ لي من المجيء، خلعت الثوب، وانطلقت إلى المياه أذوب فيها، عساني أتحوّل ذرة من ذراتها التي لا تُعدُّ ولا تُحصى.

يعروني في أحابين كثيرة يقين حقيقي بضالّتنا، وبعثية كلّ ما نعمل، هذه الحياة الهشّة القطنية التي نحياها، والتي لا ترضى بغير تدميرنا أحياناً، تدميرنا ثم طحننا وغربلتنا، وتصفيتنا، حتى تستلّ منّا النفس الأخير، والأمل الأخير.

نادية التي تمرّدت دائماً، وصرخت كثيراً مذ غادرها يحيى وغدر بها، منذ أدار لها ظهره ومشى، بعد أن تذوّق جسدها، ومزّق روحها العاشقة له، استعاضت عنه بمهنتها، تفني نفسها فيها، تَسْفَحُ وقتها وجهدها، وأعصابها، وكلّ أفكارها في سبيل تطويرها، وتحسين أدائها، تُتهم بعد عشرين سنة بمهنتها، بأنّها غير تربية، وبأنّها تفسد الأجيال، لا تربيتها، تعلن استسلامها اليوم، تستكين، تريد السّلام على الطريقة التقليدية التي نحسن اللجوء إليها عند الشدائد.

من هو ذلك المدير الذي جرحها؟ المصيبة الحقيقية أنّ كلّ واحدٍ منّا يجعل في مُخّه محكمة قائمة، منصوبة دائماً، يطلق من خلالها الأحكام على اعتبار كَمَالِهِ هو، أنا أفهم نادية، وأعرف كم من الممكن أن يكون جرحها كبيراً متسعاً، عميقاً.

وأنا لأنانيتي صرخت بها، وهي تحادثني البارحة، تريد شكوى همّها، أخبرتها أن ما بي يكفيني وجعلتها تعتذر ما تبقى من النهار، منعتها من إسماعي شكواها.

أضرب المياه المتدفقة حولي من كلّ اتجاه كأنني أصفعها، تتدفق بنعومة لكنني أصارعها، أكره الضعف البشري، أمقت أن نضطر دائماً لاتخاذ المواقف قسراً، بدل العبور من ضفة إلى أخرى بقناعة واتزان.

الجولة الثالثة لي، تضيق أنفاسي، أتوقف عن السباحة قليلاً، أنقلب على ظهري وقتاً، أتنفس بعمق، طيور نورس تخلق في السماء، أستردّ أنفاسي، أريح صدري أسبح باتجاه الشاطئ، أطلب الاحتماء من نفسي بالبشر المستلقين هناك، أتقدم من الشاطئ، يستوي جسدي، تضرب قدمي الحصى الأسود الصّغير، مُدبّب، يؤلمني، وأنا أدوس عليه، مسافة تفصلني عن اليابسة، يؤلمني وأنا أدوس على كميات منه، لكنني أتابع السير، أتذكر فقراء الهند الذين يقفون على المسامير الحديدية، ينامون عليها، ماذا؟ يتحدثون أنفسهم أم الطبيعة؟ الحياة تحدّ مستمر، لا يمرّ يوم بدونها، أحياناً هو جميل، في أحيانٍ هو مُمضّ، بلا طعم وبلا جدوى.

التحدي الأكبر غداً، أعود إليه عدواً، أعود إلى لبنان، أو بالأحرى أرجع إلى حيّان، إلى ما تبقى من الحياة لي معه، سيتركني أتنفّس عبر الكتابة كما أتنفّس الآن، سيقول لي ليست لك، وسيسخّر مني كما يفعل دائماً، أشكّ أنه يسمح للهواء بالعبور إلى رنتي، يتغلغل في أعماقهما كما يفعل الآن، أعبه عباً، وأحبه إذ ينسربُ إلى كلّ خلايا جسمي، إلى كلّ مسامي، ثمّ أطلقه كحبيس خرج إلى الحرية، يعدو ويتوثّب.

أطلق عينيّ ترعيان على الجانبين إلى جواربي، صفّ هائل من البشر، الكلّ يتمدد على الشاطئ، الكلّ يطلب الاسترخاء، ولسع الشمس، يعبر نظري إلى البحر المترامي بلا حدود، إلى أشجار الصنوبر ذات الخضرة الزاهية على الضفة المقابلة، إلى السماء الصّافية، الدّائبة من الصّفاء والصحو، أفكر بأن لا بدّ من وجود الجنة، يكاد ينمو فيّ يقين بأنها على هذه الأرض بالذات، لكنّ البشر هم من يحيلونها الجحيم.

يبحث البشر دائماً عن التضاد، يسعون إلى القبض على الهارب من أيديهم، وإلا لا أفهم كيف يرفض حيّان دائماً أن يطلقني، وأنا في كلّ يوم أعلن كراهيتي له واحتقاري لفعله، يريد الدنيا بأسرها بين يديه، لا يحبّ أن يترك منها شيئاً، لا أفهم كيف يهرب يحيى من نادبة ليعدو بعيداً عشرين ألف ميل، لا أدري كم من آلاف الأميال، من آلاف السّاعات والأيام والشهور. الإنسان تركيب معقّد، ولا أفهم كيف تتزوج نادبة وتنجب، وتبقى على انتظار له.

سنتان بعد أن تحسنت أحوالنا المادية تماماً، سنتان قبل زواجه من تلك المرأة، وأنا أطلب منه أن تُجرى عملية تلقيح صناعي، ننجب ولداً لنا يحمل بعضاً من ذواتنا، أطلب منه، وألحّ، أكاد أقبل بديه ورجليه، وهو يرفض ويسخر، ويعلق أمامي بصلف:

- العيب فيك، وتريدون تحويلي إلى آلة تلقيح، مهزلة. يبدو أنك جننت تماماً، جدي لأبي لم ينجب من المرأة الأولى، الثانية أنجبت له خمسة، يعني هي قسمة ونصيب، حتى أختك عليّة تعرف هذا الكلام جيّداً، أسألها.

ثلاث سنوات مرّت الآن على زواجه، والزوجة الجديدة التي تنظر إليّ بتعالٍ كما رأيتني لا تنجب، الشماتة تنورم في قلبي، فرح لئيم يسعى في جنباته مع كلّ يوم يمرّ، والمرأة لا يمتلئ رحمها به، ولا ينتفخ بطنها بحمله.

- قسمة ونصيب.

يؤمن حين يُريدُ، وسائر الأيام ينهش في لحوم العباد، ينتقي ويعرّب.

فجأة أدرك، لا ربّما ليس فجأة، وإنّما بصفاء ما بعده، يدرك ذهني الآن الظلم الذي تنطوي عليه علاقاتنا الاجتماعية المناقفة، وأوقن أن حيّان يبقيني إلى جواره حفاظاً على الصّورة في الإطار، وأنا أبقى معه كرمي لهذا المجتمع، نفاقاً وخوفاً من أسننته التي تجيد اللسع والالتهام.

لم تجد نادية طريقة أقلّ سوءاً لإنهاء صراعها المستمرّ سوى الحجاب، ما هي النهاية التي سوف أختارها؟ اللجة تخنقني، وتدفعني أكثر للتشبث بالرّمال، حتّى ولو كانت في هذا المكان مجرد حصى مدبّب يدمي الأقدام. في لحظة، في لحظات، تستحيل الحكاية تراباً أحمر قانياً، يتفتت بين الأصابع، ويتهاوى فلا يبقى منه إلا نثار، سأكون في يوم ما حكاية، أم أكون مجرد نثار؟

القسم الثاني

أنا نيرمين... يُقلّقتني حالُ فاطمة...

لقد صارَ قلبي قابلاً كلّ صورةٍ
فمرعىً لغزلانٍ وديراً لرهبانٍ
أدينُ بدينِ الحبِّ أنّي توجّهتُ
ركائبه فالحبُّ ديني وإيماني.
محيي الدين بن عربي

تنزلق سيارتي الـ Nissan ببطء على الطريق الجبليّ، تتحدر بخفة متناهية، أستمتع بالقيادة التي تعلّمتها حديثاً، أصدقائي سبقوني إلى ذلك، أهلي يخافون عليّ، إنّها السنّة الأولى التي أقود فيها سيارتي رغم أنني قد بلغت الثانية والعشرين أو كدت أنهبها. انحدر نحو الطريق المحفوفة بالظلال وبالصّمت المسائيّ، عن يميني تتراءى لي الهضاب الزرقاء الممتدة بتكاسل مُعرجٍ على مسافات.

عشر دقائق وأصل إلى الأوتوستراد السّاحلي الحديث، أسلكه، خفّت زحمة السيّارات الآن، الوضع معقول. أقود بهدوء، ألتزم جهة اليمين في غالب الأحيان، ما زلت أخاف من القيادة، أشعر أن السيارات تهجم عليّ تريد أن تفترسني في كلّ مرّة أنظر في المرآة وأتطلع إلى الخلف.

أنهي منطقة الأوزاعي تقريباً، أسلك الطريق المؤدّي إلى مطار بيروت الدّولي، أعبّر النفق الأول، أنتهي منه، تطلّ المباني العشوائية فوق السّور العالي الذي يسبق النفق الثاني الممتد، مبانٍ تعكسُ صراعاً وتهاوناً وتفاوتاً، تنضح بما في هذا البلد من خصامات.

أبنية متراصّة غامضةٌ بنيت على عجل، لا شيء يميّزها سوى الفوضى والبشاعة، وعدم الاكتمال.

يزورني الاكتئاب، يحتلّني، أكره الفوضى، أقاوم انزعاج اللحظة بالتفكير في الوسط التجاري، في الواجهة البحرية الفاتنة، في المحال الخرافية الأنيقة، في المقاهي والمطاعم العامرة بالناس من مختلف الأعمار، لكنها تكاد تكون من طبقة واحدة، أفكّر بأننا لسنا بحاجة إلى ذلك المكان ربّما، لكننا مشهده يجعلنا رغم كلّ شيء نشعر بالإحساس بالانتماء للعالم الذي يعدو سريعاً إلى الأمام، بحاجة لما يحدث فيه من تقدّم وهندسة وتفنن في العمارة والبناء.

ربما المكان لا يعبّر عما نحن فيه حقّاً، لكنه يضعنا على أوّل الطريق نحو الأحلام، أحلام بأن ننقل في يوم من كوننا عالماً ثالثاً يغرق في الفوضى، إلى عالم آخر لا يشابهه، ولا يسلم عليه.

أغرقتني هذا التفكير في كآبة شنيعة، رغم طبيعتي المتفائلة عادة، وأنا أحسّ بالانقسام، وعدم التجانس، العدالة مفقودة على الأرض، أكره أن أفكّر بذلك، لكنني أفعّل، وإذاً، بدا لي أنني لن أكمل طريقي إلى المطار، وأني سأتصل بزياد لنتلقي في أي مقهى، نتحدّث، ونحبّ، ونتبادل الأحمال، والضحكات، مجرد خاطر ليس إلّا مرّ في رأسي سريعاً.

لكنّ فاطمة، خالتي، تصل بعد قليل، طائرتها تحطّ عند الخامسة عصراً في مطار بيروت، أسقطه. أحبّ أن أناديها فاطمة، أسقط لقب خالتي في غالب الأحيان، لا أحبّ المسافات أن تقوم بيننا، أعتبرها أختي من غير أمي.

أمي عليّة التي أنجبتني هي أكبر البنات في منزل جدّتي، باتت الآن في الخامسة والستين، أنجبت أختي زلي مولودتها البكر، بعد ذلك أنجبت خمس مرّات، خمسة ذكور، ارتاح قلبها، لم تعد تريد الانجاب، اكتفت في الواقع.

حملت بي وهي في الثالثة والأربعين من عمرها، غلطة، أغضبته كثيراً، حاولت إنزالي أكثر من مرّة بأن كانت تقف على السرير، وتقفز على الأرض، تقف على طاولة خشبية مرتفعة وتنظّ

كالورّة، تخرج إلى الحديقة وتففز من جلّ إلى جلّ، دون فائدة يبدو أنني كنت قوية منذ صغري، تمسكت بجدران رحمها، والتصقت بها، رافضة الإذعان لعنادها، والخروج.

أنجبتني وهي غاضبة، تخبرنا بذلك جميعاً، لكنها بمجرد أن رأنتي أبتسم بنعومة، وأنا أخرج إلى الدنيا بلا صراخ، عَفْتُ عني وسامحتني، وتعلّمت مع الأيام كيف تحبّني، وكيف تحنّ عليّ.

في العام الذي تزوّجت فيه خالتي فاطمة، تزوّجت أختي رلى كذلك. كانت لاتزال في السابعة عشرة من عمرها، أحبّت خالداً ابن جيراننا، الطالب الجامعي الذي كان يدرس الصيدلة في الجامعة العربية ببيروت. حين تقدّم لخطبتها رفض والدي على اعتبار أنها مازالت تلميذة فاشلة في المرحلة الثانوية، لكن رلى العفريتة، والتي كانت لا تهدأ لحظة هربت مع خالد صباح يوم ربيعي عن شرفة المطبخ، بعد أن وضع لها سلماً، وتلقفها من على الأرض، وانطلقت معه في سيارة أخيه التي استعارها متجهين إلى بيروت، إلى منطقة الكولا حيث كان يقيم في شقة صغيرة جداً على سطح إحدى البنايات السكنية، أرادا أن يعقدا قرانهما لكنها كانت دون الثامنة عشرة، بقيت يومين في شقته لا يمسخها، ولا تقترب منه كما أخبرا الجميع فيما بعد، قرّرا العودة إلى البلدة، طبعاً صفحتها والدي كفاً رنّ صدها في المنزل عند وصولها مع خالد الذي حاول إظهار تماسكه، ورجولته أمام والدي، لكننا الخوف كان يطلّ من عينيه. اكنفى بالوقوف جامداً أمامه.

ثم نادى والدي زوجته التي هي أمي، قائلاً لها بحزم دون أن ينظر إليها:

- البنت كبرت، سأزوّجها.

برطمت أمي، ولعنت البنات والنساء وسبّت لهنّ، ولصغر عقولهنّ، ودخلت غرفة رلى، وشدّتها من شعرها أكثر من مرّة، لتطمئن أنّها أظهرت غضبها، لكنها في أعماق قلبها كانت راضية عن قرار زوجها، واحترمه كثيراً.

تزوجت رلى «بطنة ورنة» حتى يعلم أهل البلدة أنّ ابنتنا شريفة، وأن الشاب لم يدخل بها حين اصطحبها معه إلى بيروت، وأنه يرغب بها زوجة له لا في السرّ بل في العلن، وأمام كلّ الناس، وغصباً عن عين من لا يريد، يعني أبي.

[15]

بعد ثلاثة أشهر من زواجها حملت أختي زُلى بيكرها كريم... انشغلت والدتي بحفيدها الأول تحبّه وتغدق عليه حنانها، على اعتبار «ما أعزّ من الولد إلا وُلد الولد»، وبعد ذلك توالى ولادات أختي، أنجبت ستة أولاد، الواحد ينطح الآخر، ثلاث بنات وثلاثة صبيان، ثمّ نشطت والدتي حتى زوجت أربعة من أولادها الشبان، لكي تكتمل فرحتها بذريتها، وبعدها راحت تستقبل أحفادها منهم الواحد تلو الآخر، فتنشغل بهم، وتقضي وقتاً طويلاً بينهم، وأنا أضيع، أغرق في زحمة هؤلاء الأحفاد الصغار الحلوين المهضومين، ياي، والذين نافسوني على كلّ شيء، نافسوني على حبّ أمي، على ثيابي، على ألعابي القليلة، وبما أنه لم يكن أحد فاضياً للاهتمام بي، نافسوني على طعامي، على مكاني، وسطوا في غالب الأحيان على سريري. أحياناً كنت أرغب في عضّهم.

في المقابل، كانت السنوات تتوالى على خالتي فاطمة وهي لا تنجب، فيزداد تعلقها بي، ويتورّم حبي في قلبها، وتسرف تدليلاً لمزاجي، وأنا أستغل ذلك، وأتمادى في الارتماء بأحضانها. باتت المرأة حريصة على أن أنام عندها على الأقلّ يومين في الأسبوع، ليلة السبت وليلة الأحد، أعود الإثنين إلى منزل أهلي بعد رجوعي من المدرسة.

حينها كنت أخرج معها ومع زوجها حيّان إلى السينما نشاهد أفلاماً، ويصحبانني نهار الأحد إلى مطاعم فاخرة نتغدى كلّ يوم أحد في واحد منها، نتغدى ونستمع إلى أغنيات مطرب اتفق معه صاحب المطعم، حيث يسلطن زوج خالتي، ويشرب الويسكي تحديداً وأحياناً يستخفّه الطرب بعد أن ينتشي، فينهض من على كرسيه، ويبدأ بالتمايل والرقص والتصفيق، يصرّ بعد ذلك على أن تنهض فاطمة معه، تشاركه نشوته، تراقصه وتضحكه، وتتمايل أمامه وحوله.

كنت أسمع ضحكاتهما، وهي تكرر وتتوالى، وقد يسكر زوج خالتي، فيغادره حياؤه ويروح يدعو بعض زبائن المطعم إلى الرقص معه، بعضهم يتحمس ويقفز ليشارك، بعضهم يعزف عن المشاركة مكثفياً بالتصفيق.

نبقى في المطعم حتى الليل، وعندما نعود تشرف خالتي على استحمامي، وتتأكد من نظافتي، وخلويّ من أية ميكروبات، تطلب من الخادمة المصرية - على فكرة خالتي كان عندها دائماً خادمة حتى قبل موجة الخدم السيرلنكيات والفيليبينيات التي عمت البلاد بعد ذلك - كانت تطلب منها أن تحكي لي قصة، حكاية حتى أنام، وأن ترافقني إلى سريري، وتطمئن إلى أنّ الغطاء قد غمرني بكليتي.

جدار غرفتي ملاصقٌ لجدار غرفتهما، الخادمة المصرية فتحية ثرثارة كبيرة رغم أنها طيبة القلب، تفوح منها في غالب الأحيان رائحة الطبخ ممزوجة برائحة العرق، أسنانها صفراء مسوسة، لا أحبّ حين تقبلّني.

بعد أن تنتهي قصتها التي تكررّها على مسمعي كلّ ليلة، قصة الأقرام السبعة حاشرةً فيها مشاهد مخيفة، كنت أظاهر بالنوم حتى تغادر غرفتي سريعاً، تطفئ الضوء، تغلق الباب، أجلس في

سريري، وأروح أستمع إلى مناغشات فاطمة وزوجها حيّان، وكركرتهما وهمسهما الخافت، وصوت السرير الذي أتصوّر كيف يحتضنهما، ويحتضن كلّ ما يفعلان.

أبقى أستمع حتى يخفت صوتهما تماماً، أو حتّى يغشى النعاس عيني فيغلبني...

أستيقظ في الصباح على قبلة فاطمة المعطّرة تطبعها على جبيني وخصلات شعرها المبتل بعد استحمامها تلامس خديّ، توقظني بلطافة:

- يلاً نيرمين، يلاً حبيبتي، قومي تناولي فطورك معنا. أحبّ رائحتها...

زمنٌ جميلٌ قضيته من عمري في منزل فاطمة وزوجها، زمنٌ هادئٌ كنت أجده مفعماً بالحب والسعادة والمناغشة والضحكات.

أفسحت لي فاطمة مساحة متسعة من حياتها، أبعدتني عن العجفة التي كانت تحاصرني في منزل والدي، حتى إنها أفردت لي خزانة عندها، فيها ملابس وألعاب، أبقياها هناك، ألعابٌ جميلة، بيجاما أرديها حين أكون عندها وملابس للخروج عندما أرافقها في نزهاتها أو في زيارتها، وملابس Sport مريحة حين نكون في المنزل بعد الظهر.

وكانت لي مكتبة هناك، أنجز على طاولتها فروضي لليوم المدرسي التالي، وأقرأ القصص الجميلة التي تحرصُ دائماً على مفاجأتي بها. وحين كانت لاتزال تمارس التدريس كانت تصرّ على أن أحلّ تمارين علمية إضافية، وتلزمني أن أقرأ باللغات الثلاث.

أعترف أنني أدين بثقافتي، وبإكمالي تعليمي الجامعي لفاطمة تحديداً، بدليل أن أختي رُلى لم تتعلّم، رسبت أكثر مرّة في الصفّ الأول الثانوي، بلغت السابعة عشرة من عمرها وكانت لاتزال فيه، تكاد تتخصص بموادّه، أخوتي الشبان لم يحصلوا التعليم الكافي، معظمهم انصرف إلى المهنة الحرّة، أخي عماد صاحب محلّ سمانة، أخي زكريا امتهلك شاحنة يعمل عليها، أما وليد فموظف بسيط في البنك الكندي، وعلاء يعمل منذ فترة لا بأس بها في منطقة السوق الحرّة بالمطار، الوحيد الذي تعلّم من أخوتي الشبان هو وسيم، درس الحقوق في الصنّاع حيث كانت الكلية، وبات محامياً، عنده مكتب محاماة في بيروت برعاية أكيدة من فاطمة، وبتأثير واضح على ذهنيته التي تشبه ذهنيته.

عندما تفتّح وعيي، وبتّ في الرابعة عشرة من عمري، رحلت ألاحظ أن رقص عمي راح يخفّ عندما نخرج إلى المطاعم، ما عاد يشرب، ولا عاد ينتشي، نجلس وكلاهما صامت واجم، بعد ذلك لم نعد نخرج كثيراً لتتغدى في الخارج، صارت الفيليبينية التي حلّت مكان فتحية تحضّر لنا الطعام في المنزل، توّزعه على المائدة، نجلس أمامه متقابلين، نتبادل كلمات رسمية للغاية، مقتضبة وجادة.

في أوقات معينة يصل الكلام إلى الشّفاه، نزرده مع اللقيمت القليلة التي نتناولها. انتصبت ألواح زجاجية شفافة بيننا نحن الثلاثة، نتكلم فلا نسمع بعضنا.

وفي يوم فاسد لا أعرف كيف وصل، انفجر الزجاج، تبعثر، وصار شظايا تتساقط على رؤوسنا جميعاً، ولا سيما رأس خالتي فاطمة. وتحوّل المنزل الهادئ الأرستقراطي إلى منزل مسكون بالصراخ، وبالغضب وباللؤم.

عامً كاملً مرً، وأنا أعاينُ تدهورَ العلاقة بين خالتي وزوجها، أرى العنف الذي يمارسه عليها، وأنظر تحوّل هذا الثنائي الجميل إلى غريبين قاسيين يلتهمان بعضهما في الليل وفي النهار في الصيف وفي الشتاء، في السرّ وفي العلن.

عندما بلغت السادسة عشرة، رفضت بعد عيد الميلاد الذي احتفلت به خالتي في الـ Burger King ، العودة معها إلى المنزل. تذرّعت بالشوق إلى والدتي. المريضة حينها، وبخوفي عليها، وأصررت على العودة مع أختي الشباب الذين أتوا خلال الحفلة تباعاً، عدت إلى منزل أهلي، حملت معي كيس الهدايا، في اليوم التالي وزعتها كلّها على الأحفاد الكثر الذين يؤمون بيتنا، احتفظت لنفسي بالحاسوب Apple الذي خصتني به فاطمة، فكنت الوحيدة في الأسرة التي تمتلك واحداً منه.

[16]

في الأيام التي تلت حفل عيد ميلادي السادس عشر، رحْتُ أبتعد شيئاً فشيئاً عن منزل خالتي فاطمة، صرت أتهرب من النوم عندها، أدعي المرض، أخبرها أن رفاقي سيأتون لزيارتي، أو أنني سألتقي ريماس ابنة أختي رُلى التي تصغرني قليلاً:

- تحتاج مني أن أشرح لها بعض المسائل الحسابية.

- سأحلل وإياها النصوص الأدبية التي درستها هذا الأسبوع.

تهزّ فاطمة رأسها وتبتسم...

كانها ستعجز هي عن فعل ذلك، كأنها لم تكن أستاذتي الأولى في كلّ موادّي الدراسية.

كنت أكذب علناً، وكانت ألطف من أن تُفسد عليّ كذبي.

وحين كانت تصرّ أحياناً على أن تصطحبني للغداء معها، ومع زوجها إلى أحد المطاعم قائلة بحماس فاتر:

- اليوم سنتغدى في الخارج، ألن ترافقيني، الجلسة لن تحلو بدونك؟

أشعر بخجل شديد من نفسي. أعلن موافقتي، وأحدّد الوقت الذي سأحضر فيه إلى منزلها، أحال الوقتُ جلسات الغداء بيننا إلى جلسات تعذيب حقيقية، لم يعد الصمت هو المهيمن فيها، صار شيئاً ضبابياً كأنه الغبار الخانق يتمدد فيما بيننا نحن الثلاثة، يمنعنا من رؤية بعضنا بغير تشويه، ومن الحديث مع بعض بغير اختناق، كنت قد تحولت بالنسبة لحيان امتداداً عضوياً لفاطمة، وكانت كراهيته لها تُنسحبُ أحياناً، لتطاولني برداها.

بعدها امتنعت تماماً عن مرافقتها إلى جلسات الغداء هذه، بت أكنفي بصحبة فاطمة منفردة، تصطحبني من منزل أهلي، منزل أختها لتشتري لي الملابس الجميلة قبل الأعياد، وفي حفلات أعياد الميلاد. تشتري معي الكتب المدرسية، تقوم بتجليدها بنفسها، ثمّ تعيدها إليّ في اليوم التالي. تبتاع هدايا مميّزة قد لا تكون التمتع في بالي بعد، وتباغتني بها، كلما ابتعدت عنها جسدياً كلما علفت روعي بها.

أعترف أنّ فاطمة دللتني كما لم تدلل أم ابنتها، كما لم يدللني أحد أخوتي، أو أي إنسان عرفته سواها.

وفي فترة ابتعادي حاولت الاستعاضة عنها ببنات أخوتي، كنت لأزال بعيدة عنهن حتى ذلك الوقت، وجدت فيهن بعد فترة تسلية حقيقية لي رغم فارق العمر بيننا، بعضهن كن لطيفات فعلاً كريماس ودنيز ابنتي أختي رُلى، رماح لم تعن لي كثيراً وهي الأخت الثالثة لهما. لين ابنة أخي الكبير عماد كانت مهزومة للغاية، شكلنا نحن الأربعة ما يشبه الفريق العائلي الذي يجتمع بانتظام في منزل العائلة الرئيسية، منزل أهلي، نجتمع عصراً أو مساء على الشرفة الكبيرة المطلّة على البحر، نضحك ونتبادل النكات وأخبارنا المدرسية والعاطفية، نستمتع إلى أخبار الفتيان الذين نضع أعيننا عليهم. ونتحدث عنهم كأننا نعرفهم جميعاً، وكأنهم أحبةٌ مشتركون لنا جميعاً، كأن نتذاكر:

- ماذا فعل بشار اليوم؟

- كيف عوقب محمود عند الحصة السادسة لأنه نسي فرض Math ، فأرسل كذا Message لهادية وهو خارج الصف، وراح محمولها يرنّ بين حين وآخر إلى أن أخرجها المدرس من صفها كذلك.

- وكيف ألقى أستاذ التاريخ القبض على مازن، وهو يكتب قصيدة عن ريماس وأنفها الجميل، بينما كان الأخير يشرح ويستفيض محلاً موضوع الفراعنة، وأفكارهم حول العالم الآخر والحياة الثانية، وجمال نفرتيتي التي اشتهرت بأنفها الأقي، وحين سأله الأستاذ ساخراً هل يعرف معنى الاسم ريماس وصاحبته حتى يكتب لها قصيدة أجاب هذا الأخير متحدياً: لا، لكنني أستوحيته من حديثك يا أستاذ ومن أخبارك عن نفرتيتي.

ضحّ الصف بالضحك، وهم يعرفون حبّه لريماس في الصف الأدبي.

انعدت صداقةً حقيقية بيني وبين هؤلاء الفتيات، ماتت الغيرة التي كنت أجدها في قلبي حيالهنّ وأنا صغيرة، استحالت حباً ووداً، وإغداقاً عليهن بالهدايا التي استمرت فاطمة تغرقني بها، دون أن تحاسبني إذا لمحتها مع سواي. أحياناً كنت أمنح لين بعض الملابس التي تشتريها فاطمة لي لأنّ مقاس جسدها هو نفسه المقاس الذي يلائمني، وأعطي دنيز الكثير من الأكسسوار الذي تشتريه لي، فهي تحبّ الأكسسوار بكل أنواعه.

لم تكن لتغضب، بل تسارع إلى إبداء ملاحظات لطيفة حولها، وتعلن استملاحها لما ترى من جمال.

أحبّ فاطمة، وأغضب تماماً حين يخاصمها حيّان، وحين يسيء إليها.

أصررت على أن أصطحبها من المطار اليوم، أريدُ لها أن تصلُ بهدوء، وألا يتعكر مزاجها، لا أريد لقسوته أن تزحف إليها سريعاً. انتظر سفرها، وفعل ما فعل، عندما يريد لا تقف الدنيا بأسرها في وجهه، لم يعد الرجل يعنيني الآن، فاطمة وحدها هي هاجسي، أريد أن أحميها منه ومن قسوته، أحسست أنها مرتاحة سعيدة هناك، لم أشأ إفساد عطلتها بأخبار ذاك الغبي، إلى متى أستطيع حمايتها من قدرها؟ بعض البشر لا يستحقون ما يُعطى لهم. الإنسان مخلوق جحود فكّرت بذلك وأنا أضع الخطوط تحت أسطر من المقال الذي قرأته اليوم، ثورات في اليمن، في ليبيا وقبلها في مصر، قتلى وجرحى وفوضى، ورؤساء امتصوا دماء شعوبهم طويلاً، رفضوا كلّ الخيارات وتمسكوا بكراسيهم حتى النفس الأخير، لكل عصر نيرونه، فكّرتُ بجحود الإنسان وبقسوته التي لا تعرف أحياناً الحدود.

[17]

أقول لنفسي وأنا أرى فاطمة تتقدم باتجاهي متجاوزة الحاجز الحديدي على أرض المطار:
- مازالت خالتي جميلة.

ربّما لأنّها لم تنجب؟ ولم تُفسد قوامها الجميل بالحمل وبالإرضاع.
ربّما، لكنّ بعض الأطباء يرون أنّ الحمل حالة ضرورية لجسد المرأة، كذلك هو إرضاعها الأولاد.
بماذا أفكّر في هذه اللحظة، تقترب فاطمة أتلقفها بلهفة، تصلُّ إليّ، فأرتمي في حضنها، أعلن بلا
مواربة:

- اشتقت إلى رائحتك.

تمرّر أصابعها الطرية على شعري الحريري المناسب، تعلّق متضاحكة:

- مؤكد، والدليل أنّك رفضت أن تسافري معي.

- أردتك أن ترتاحي منّا جميعاً، دفعة واحدة.

- مازلت محتالة كما عهدتك.

تتأبط ذراعي، نتوجه صوب السيارة التي ركنتها في موقف المطار، أين هي، أين هي؟ دائماً أجد
مشكلة في العودة حيث تركتها، أجل 8 parking ، لمحتها، أسحب خالتي من يدها، العامل الذي
يجرّ عربة اليد خلفنا يسرع مُتبعاً خطواتي:

- حقائبك كثيرة.

- اليوم الأخير كان لـ Shopping ، تعرفين ولعي.

- أفسدتنني في هذه المسألة بالذات، وأنتِ أدرى.

- الحصّة الكبيرة لك هنا.

- وأشارت إلى الحقائب.

- أقبّلها.

- حبّ حقيقيّ ينبع من ذاتي حيالها.

- كيف سنتلقى النبا؟

- أسأل نفسي.

- لم يكفّ نفسه عناء المجيء إلى المطار لاستقبالي.

- أفهم أنّها تشير إلى حيّان:

- لا، حرام عليك، أنا منعته.

- عافاك .

يرصّ العامل الحقائب في مؤخرة السيارة، أخجل من حجمها الصغير، أقترح عليه أن يضع واحدة على المقعد الخلفي، يلبي الاقتراح، تنقده خالتي أجرته مضاعفة، ينطلق داعياً لي ولها بطول العمر وبالبحبوحة.

- اكتسبت سمرة جميلة.

أقول لها والسيارة تخرج من منطقة المواقف التابعة للمطار.

- أليس كذلك؟ أعجبنى اللون، أحببته.

- سنذهب الآن إلى منزل أهلي، وبعدها أوصلك إلى شقتك، ها ما رأيك؟

- كما تشائين.

- كيف كانت الرحلة؟

- لطيفة.

- موعدنا مع الرجل غداً، تكونين قد ارتحت، يقول إنّ أسلوبك شيق، لم يصدّق أنك تكتبين للمرة الأولى.

- تضحك بتباهٍ الآن:

- ليست المرة الأولى يا صغيرتي، لكنها الأولى التي أطلعك عليها.

في منزل العائلة كان الكلّ منتظراً: عليّة بحبّها ووقارها، وحضنها الكبير الذي يسعنا جميعاً، والآخرين أختي رلى، وأخوتي الشبان باستثناء عماد، ومعظم الأحفاد تحلّقوا جميعاً حولنا مهنيين بالسلامة.

العشاء كان شهياً. بصراحة لم تترك عليّة صنفاً شهياً لم تحضّره، أحبّ طعامها. أكلت كثيراً، التبولة كانت لذيذة، كذلك الكبة، ورق العريش بالزيت، متبل الحمص، كلّها أصناف أعشقها، وهي تعلم ذلك، حين تريد تدليلي تحضّرها معاً.

فاطمة لم تأكل كثيراً، قالت إنّها تغدت خفيفاً في الطائرة، لا شهية لها بعدُ على الأكل، سئمت لكثرة الطعام الذي تناولته هناك.

- أكلهم طيب؟

- لا بأس به، بعضه يشبه طعامنا، لكنّ طبخك يا عليّة أطيب بكثير.

- بدليل أنك لم تأكلي شيئاً منه.

ضحكنا جميعاً. بعد العشاء ورّعت فاطمة الهدايا، لم تنسَ أحداً، حتى الصغار اختصت كلّاً منهم بهدية لطيفة.

الحصّة الأكبر كانت لي فعلاً، اشترت لي تنورة جلدية قصيرة أعجبتني جداً، سيحبّها زياد، وجاكتة جلدية، وحقّبية يد (LV) ، وسجادة يدويّة صغيرة، لكنها فاخرة، أضعتها في غرفتي. تمنحني كلّ

ذلك أمام الآخرين، ولا تبالي، أحس بالإحراج، تكتفي بابتسامة، وتهزّ كتفيها.
والدتي أعجبتها السّجادة الجميلة التي اختصتها بها، لكنها مصممت شفيتها، وقالت وهي تنظر إلى
البعيد:

- عليك أن تحرصي على قرشك أكثر، لِمَ يا فاطمة يدك سائبة هكذا؟ أمنا لم تكن كذلك. ضُيِّ يدك
قليلاً يا أختي. لم تجب فاطمة، تظاهرت بعدم سماعها، انطلقت إلى غرفتي، تريد أن ترتاح،
وتتصل بحيّان تخبره بعودتها. شاغلتها قليلاً، لا أريد لها أن تفعل الآن.

- غداً موعدنا عند الحادية عشرة لن تنسي، أليس كذلك؟

- ماذا أحمل معي؟

- لا شيء، أنا أرسلت له نسخة، وتركت لنا النسخة الأصلية.

[18]

في مكتبه استقبلنا الرجل ببشاشة مفتعلة، أذناه كبيرتان، وعيناه صغيرتان، أنفه معقوف، وأسنانه مسوّسة، لم أحبّ مشهده كثيراً، يحدثنا بتعالٍ خفيف، ينظر إليّ، ولا ينظر إلى فاطمة، كان قد زانها ببصره كذا مرّة قبل أن تجلس، بعدها تحاشى النظر إليها.
جلس موارباً لها، انصرف بكليته نحوي، وكأني أنا صاحبة الأوراق.

- ها، كيف الحال؟

- الحمد لله.

- إجابة عادية، أهرب منها عادة.

- المرة الأولى التي تكتب فيها؟

- لا، ليست الأولى.

- أجابت فاطمة محاولة اجتذاب نظره، لكنها لم تفلح.

- وماذا تعمل الآنسة؟

- أنا محررة مبتدئة في جريدة النهار؟

- عال، عال في أي قسم؟

- في القسم الاجتماعي.

- برا؟و، برا؟و.

كان الارتياح صوتاً، لم يعكس وجهه الإحساس فعلاً.

- ولمّ لمّ تنشرها هناك؟

مازال ينظر إليّ، وفاطمة تجيب.

- لا يبدو أنهم أعجبوا بالأقصوصتين هناك.

- هه.

فجأة، وكأنه ما عاد يطيق صبراً، التفت بكليته إلى فاطمة، يسألها وقد فتّح عينيه الصّغيرتين على آخرهما، فبدا مشهده مضحكاً:

- أنت السيّدة عسّاف كما أخبرتني الآنسة، قريبيك روجيه عسّاف المعروف؟

مرّ وقتٌ قبل أن تستوعب فاطمة المشهد، وحين فعلتْ بدأت تضحك خفيفاً، ثمّ راحت تضحك وتكرّر بانطلاق وتتلوى، تعالي ضحكها، وانقلب قهقهة، راحت تضرب كفّاً بكفّ، ثمّ علا صوتها.

- المهزلة نفسها في كلّ مكان إذاً، يا ربّ.

انتصبت واقفة، ضحكاتها لا تنتهي، أنا حائرة محرجة، لا أدري ما أصابها:

- على كلّ، هاتِ الأوراق، ما عدت أريد نشر شيء يا أستاذي الكريم.

ونترت الأوراق التي يحملها من يده.

- تعالي نيرمين، يلاً، خلصنا.

سرتُ معها، وأنا لا أفقه شيئاً مما يجري، خرجنا. وقبل أن تغلق الباب، قالت له بصوت مرتفع هذّار طافح بالسّخرية:

- لا لست قريبة روجيه عسّاف يا أخ محمود، وعلى فكرة أنا فاطمة عسّاف لو تدري، حتى ولو كان شعري أشقر وعيناوي خضراوان.

صفقت الباب بقوة، ارتجّ جسدي.

- ألم أقل لك إنه بلدٌ متعفن.

- هاي فاطمة ما بك، ليس هكذا نتعامل مع الموقف، اهدئي.

- تعالي، لا أريد شيئاً بعد الآن، أنا تركت التعليم هرباً من هذا العفن الذي يصدره الأهل لنا عبر

أولادهم، يا ربيّ أيّ لعنة هي أن يسكن الإنسان بلداً كلّ ناسه مهووسون بالدين، ومعظمهم لا يفقهون عن الدين شيئاً، كأن الله بحاجة إليهم وإلى تعصّبهم، أي عمى، أية لعنة يا ربّ السّموات؟ حتى هذا المبتدئ لا يريد أن ينشر كلمة قبل أن يطمئن إلى ملّتي، أي لؤم أعمى؟

حين أوصلت فاطمة إلى شقتها كانت لاتزال تحادث نفسها، لم تعرف كيف تصمت، أطلقت لغضبيها العنان، حاولت تهدئتها أكثر من مرة.

- هيا يا بنت، ألا تعرفين أنني أتناول Deanxit منذ مدة، ومستحيل أن أصمت الآن، الكلّ يطفو

على السطح في هذه اللحظة، تعبت من الصّمت، نيرمين أكاد أتقيّوه.

[19]

لم أستطع تهدئة فاطمة حتى انتابتها - وقد جلست على الكنبة - نوبة بكاء قويّة رجّت جسدها رجّاً، وجعلتني أفّ مذهولة حيناً من الزمن.

قلت في نفسي: حسناً دعيها تُخرج كلّ ذلك من بطنها. فاطمة التي تمرّدت على مدير مدرستها بعد أن راح يحشد الطلاب في مناسبات حزبية معيّنة، وبعد أن راح يتساهل مع بعض الأساتذة يثيرون نفوس الطلاب بالعصبيات الجاهلية، تبكي الآن، رفضت ذلك في المدرسة، فقدمت استقالتها بعد أن فشل الكلام في إقناع سواها، ها هي ترتطم الآن بحائط العصبيّة من جديد، في الشارع؟ لا، من على هذا المنبر، يا للهول، أفهمها، لكن لِمَ لا تكبر فاطمة هذه؟ لِمَ لا تضع رجليها على الأرض قليلاً؟ تنظر إلى العالم من بُرج عاجي، أفكر بذلك، وأنا أفتح باب السيارة بعد أن ناولتها حبة مهدئة، وأطمأن بالي إذ وجدتها تأوي إلى سريرها كطفل هذه التعب.

حين يمدّ شحاذ يده إلى نافذة سيارتها تعطيه كمية من الأموال، أجنّ منها، أقول لها: المحتاجون حقّاً لا يمدّون أيديهم.

أتذكر مشهد الكثيرين منهم، وهم يجوبون آخر الليل على مستوعدات النّفايات، ينتشلون منها البقايا، مشاهد تراها فاطمة في الأفلام ليلاً فتؤلّمها، لا تريد أن تصدّق أنها باتت موجودة في بلادنا. لا تصدّق أنّ الناس لم يشفوا من الحرب بعد، وأنها كال؟ يروس كلّما قاومتها، وأوقفت دواء الالتهاب قبل المدّة المحددة للقضاء عليه، تشكّل من جديد، واتخذ له شكلاً آخر، ومنحى من الهجوم مختلفاً.

تزوّجت فاطمة حيّان، وأقفلت على نفسها الدائرة ما بين المنزل والمدرسة، وحين وجدت المشهد المثالي للمدرسة يهتزّ قدّمت استقالتها، انسحبت، وبقي لها حيّان، رجل التحولات التي لم تكن قد أدركتها بعد، اهتزّ الآن مشهده هو الآخر، لكنها لم تستطع المغادرة، كان القرار أكثر قسوة، وأكبر إشكالاً، وهي تضع كلّ أموالها بين يديه، الأموال التي كانت راتباً لها، والأموال التي ورثتها عن والدها. لم تصدّق يوماً أنّ حيّان يمكن له أن يهشم المشهد الجميل الذي شيّدته في رأسها، أحياناً تلقي نتفاً أمامي ثمّ تندم.

فاطمة لا تنزل إلى الأرض، لا ترى الكرة الأرضية التي تتلوى على نفسها الآن، لا لم تعد تدور على محورها، ثبتت في طرف من أطرافها، وبات كل البشر يدورون في ناحية واحدة من الكرة، أو على الأقل هم يعتقدون أن العالم الحقيقي يكمن هناك.

ارتمت فاطمة في المستشفى، طريحة الفراش حين طلبت الكنة الأميركية سيلين من الأسرة الثكلى بدل انتقال، إذ شحنت جثة مسعود أخيها إلى لبنان، سقطت المرأة مغشياً عليها، والآن هذا الرجل لمجرد أن رآها سافرة مشفرة، ملونة العينين، يظنها من الملة الأخرى، يحادثها متأملاً الجدار، كأنّه يتأمل أفكاره ومسلّماته التي لن يتنازل عنها كرمي لعينيها.

أفضل الأمور بالنسبة لي الآن أن أتصل بزياد، يجب أن أحادثه، أريد أن أسمع صوته، أرتاح على كتفه قليلاً من هذه المرأة الكبيرة الصّغيرة التي هي خالتي وأمّي وأختي وصديقتي في الوقت عينه.

يا له من تمرين مضجر أن تردّد في أعماق ذاتك كلّ يوم الشيء نفسه، وتجتهد في تغليفه أمام الآخرين، وفي جعله لطيفاً ومسالماً ومحاييداً إذا أمكن!

كم كدّست من أحجار في دواخلي وأنا أنظر إليها! أنظر إلى منزلها الذي يتداعى بهدوء، المنزل الذي احتضن طفولتي، وفتوتي، كيف ستكبر هذه المرأة، ولا أعود أحمل همها، وأخاف عليها كأني أمها!؟

محمول زياد مقفل، أتصل للمرة العشرين، لا يجيب لا أدري ما يشغله الآن. أجد نفسي، وبغير إرادة واعية مني أتجه نحو منزل أختي الكبرى رُلى، قلت أتسلى أنا وريماس قليلاً، بدل الانفراد بذاتي، وسماع ترّهاتها.

أسمع جاد يرندح بمجرد أن تفتح البنغلاديشية لي الباب، تحييني بابتسامة خجولة، صوت جاد يطغى في المكان، أصغر الأبناء يغني كلما دخل ليستحمّ، يدرس ويغني في الحمام. مازال في صف البرو؟، صوت غنائه يختلط بسقسقة المياه المناسبة بقوة، وبطرقات لا أدري مصدرها، ربما يرقص، ضجة في حمامه، أمرّ قرب باب الحمام أرفع صوتي:

- نعيماً.

لا يجيبي، لا يسمع ربّما.

يلغو صوته مرندحاً بالإنكليزية:

.Tomorrow, Tomorrow, I Love you tomorrow you're only a day away
تلغو الابتسامة وجهي، أحسّ بالانتعاش كأني أستحمّ. أجمل ما في الدنيا أن تحبّ، لمّ لا يدرك البشر هذا الأمر فيرتاحون ويريحون؟

أسأل عن ريماس، تقول رُلى:

- هي في بيت خالها، اجلسي، ما أخبارك؟

أنظر إليها، قليلاً ما أفعّل، أتفرّس في وجهها، يشعّ الاطمئنان منه، أفكّر أحياناً بأنّها اختارت الدرب الصحيح، جعلت منزلها جنّتها التي لا تغادرها، العالم كلّه يأتي إليها، هي ترفض أن تذهب إليه.

أمي عليّة قلقة، يقترب عيد ميلادي الثالث والعشرون، ولم أتزوج بعد، تقول لي ببساطة:

- عنّست، أختك رُلى تزوجت وهي في السابعة عشرة وفي الثالثة والعشرين كان لديها ثلاثة أبناء بعيون الشيطان.

أعلّق:

- كالبقرة.

- عيب عليك، وأنا بقرة؟ ما أنا تزوّجت في الخامسة عشرة، وأنجبتكم باكراً كذلك، أنت فقط تأخرت.

تضحك باستحياء، أناكفها:

- لذلك لا تحبيني، ولا تريدين بقائي في منزلك.

- اخرسي، أحبّك غصباً عن عينك. لكن عليك أن تريحيني وتزوجي.
- حاضر يا سيدتي، سأفعل قريباً، أمرك.

وأنا في حيرة من أمري. فاطمة تصرخ في وجهي:

- مجنونة، إيّاك أن تخاطري بحرينك، ليس الآن، عيشي حياتك، مازال الوقت مبكراً.

رأسي حائر، أحياناً حين يطلّ الاطمئنان من عينيّ رُلى، أحنّ إلى الزواج، وعندما أنظر في عيني فاطمة والفراغ الذي يبدو فيهما، إذ أسمع هلوساتها في المستشفى وهي تسبّ حيّان، وتلعن كلّ رجال الأرض أخاف، وأبعد يدي عن يدي زياد اللتين تلاحقاني.

أريد أن أخرج إلى العالم، أشارك في بنائه، في وضع بصمة لي فيه، في مكان ما منه، لكن ما يحصل في العالم بات مخيفاً، أنقل بصري بين المحمول، أصابعي تتابع النقر على مفاتيحه أطلب زياد، وبين وجهها الهادئ المطمئن، أحسدها مجدداً على اطمئنانها، لا، لا أستطيع أن أكونها، ليس الآن.

[20]

أمّ وزیاد أمام المباني الضخمة المشيّدة على أرض وسط العاصمة. عماراتٌ من النوع الممتاز، عالی الجودة، ثمّة واحدة جديدة تتعالی على بُعد أمتار من تلك المنجزة، أشار إليها زیاد قائلاً:

- هذه هي، عمارة حیّان.

- متأكد؟

- سببُ هذه الزيارة هو جعلك ترينها.

رفعت رأسي إلى الأعلى، هالني اتساعها وارتفاعها، ورشة حقیقیّة ناهضة، ككل ما حولها، عمّال وأصوات وآلات، والكلّ في حركة، أصوات تتعالی وهياج وحماسة، وأحياناً غناءً بصوت محشرج، قدّرت أنّ البناية تبلغ مقدار عشرة طوابق، زیاد قال، أكثر، تبلغ اثني عشر طابقاً.

- له فقط؟

- بالطبع له. من تظنّينه؟ هاوٍ في عالم العقارات والبناء؟

زوج خالتك واحد من الديناصورات التي تشتري البلد، وتبيعها لا ندري لمن، ربّما للشياطين...

دُرنا حول المبنى أكثر من مرّة، توقفنا أمام محلّ صغير جانبي فيها:

- البناية من اثني عشر طابقاً، كلُّ منها عبارة عن شقتين، يقول حیّان إنها بيعت جميعها لخليجيين وأجانب، الأخير منها ترك دون تقسيم، طابق بأسره تبلغ مساحته أربعماية متر، هي له، هكذا قال، يجهّزها بنفسه، ويشرف شخصياً على اللمسات الأخيرة منها، الألوان، البلاط، المدفأة، حتى مفاتيح الكهرباء لا يريد أن نختارها، قال إنسوا أمرها الآن، عليكم بالباقي، خلال حركتنا لاحظت حزاماً أخضر بدأ يلف البناية مانحاً إياها رونقاً لطيفاً. نعود إلى المحلّ الصغير نقف داخله، هو المركز الخيري يقول زیاد، ينوي الرجل تجهيزه بسرعة قبل سواه، ليتسنى له افتتاحه، صغير، صغير ستقولين إنه صغير أعلم، لكنه للدعاية فقط، تعرفين لزوم رجل الأعمال أن يُقال عنه إنه خير، يستكمل الصّورة طبعاً.

- أحلم أن أسكن في واحدة من هذه الشقق.

أقول متضاحكة.

- هذه ليست لنا يا صغيرتي، اسكنيها بالحلم.

- ستصحبني اليوم إلى شقتك، أليس كذلك؟

- وعدتك.

نكمل دورتنا حول المبنى بعد خروجنا من المحلّ الصغير، نبغي العودة إلى الطريق العام، بعدها إلى الموقف حيث ركنت سيارتي، وجدنا أنفسنا وجهاً لوجه أمام حیّان، يقف مبتسماً فاتحاً ذراعيه، معه شابان يحملان أوراقاً وحقيبتين، يبدوان مهندسين مبتدئين، يقفان باحترام فائق إلى جانبيه.

- أهلاً، أهلاً بالعروس الجميلة، وبحبيبتنا زياد، يقترب، يسراه على كتف زياد، يمناه على كتفي، أهلاً، أهلاً، يحمّر خدا زياد وهو يردّ على الترحيب، أنا أبقى صامتة، لم أتوقعه. يداعب خدي، بعد أن ينزل ذراعيه:

- أهلاً، كيف حال عروسة المستقبل، والمهندس العبقريّ، أنت الآن في إجازة، تنزّه العروس؛ أحمد أنا الله، لا يبدو عليّ أنني أرغب بالحديث.

الرجل لا يعبا بفتوري يسحبني وزياداً من يدينا، يقول ببساطة كأنما يستكمل حديثاً كنا قد بدأناه منذ مدة:

- ستريان الآن الطابق العلويّ، إنجازي الأهم حتى هذه الساعة، إنه تحفة، البحر يمتدّ صفحة زرقاء أمامه، لا شيء يحجبه، لا حائط، لا شجر ولا بشر، أنا منه في أعلى عليين، هاهاها. تسحبين يديك من يدي؟ هاي ما بك؟ لا تريدين الصعود؟ مجنونة؟ أقول كخالتك، أم كأّمك الثانية؟ هي كذلك رفضت المجيء، لكن أنت ستصعدين معي، تباركينها، لطالما كنت أتفاعل بوجهك، أنت تعلمين، ثم إنّ خطيبك له نصيبٌ من هندستها، ترين فنّه. أجل، أجل، على مهلك، تنبّهي لموضع قدمك، إيّاك أن تدوسي على المسامير، شجاعة والله، تقولين لا تخافين من المسامير؟ ممّ تخافين إذا؟ من زياد؟ لا، لا لا تخافينه، من (الخوازيق)، أن يضع لك في يومٍ ما خازوقاً مبشماً؟ هاهاها. أزعتك؟ انتبهي لخطوك، مزحي ثقيل، تعرفين هذا الأمر، أه طبعاً لست جديداً عليك. تربيت في حضني، زياد يعلم ذلك؟ لا، لم تخبريه، لم تخبريه أنك تربيت في بيتي، وفي حضني وتحت سمعي وبصري؟ تماماً كما ربّيت خالك أم أمّك؟ تفضلين فاطمة؟ حاضر يا ستي فاطمة، فاطمة أمرك، ربّيتها لكنها طلعت بلا تربية هاهاها. ماذا لا تسمحين لي بذلك؟ حسناً، لكنني أسمح لنفسي، أنا زوجها، هل نسيت؟ ماذا ماذا تبرطمين؟ انتبهي لنّلا تقعي. أمسكها جيّداً يا زياد، وأنا أمسكك كذلك. أنت تعرفين أنني أجيد الإمساك بالكنوز، لكنّ فاطمة كما تحبّين تسميتها لا تحيد الإمساك بها، غشيمة، تضيع كل الفرص المتاحة أمامها، أول من ضيّعت، ضيّعتني، أنا فرصتها الضائعة يا نيرمين، لو تدرين ماذا، ماذا تقولين لم أسمعك؟ أبعدوا هذه الحجارة. إنّها تشعر بالفراغ هذه الأيام. وأنا السبب، أنا السبب؟ هذا افتراءٌ والله. إنّهُ مثل أي فراغ آخر يا سيّدتي مجرد فراغ ليس إلا، ولا علاقة لي به، تعالي إليّ ها، ابتعدي عن هذه الكومة من الأحجار، تعالي نحوي، ماذا تعبت؟ ما أحببتها منك صبيّة في عمر الورود، وتتعبين بسرعة؟ استحييت أنا أن أتعب. أنا لا أتعب، حطيتها في رأسك، وأسمعها لأمّك فاطمة هذه، لا أنا لا أتعب. الحياة فرصة ضائعة، إذا لم نغتنمها، وإذا لم نخطّ خطوة، خطوتين كلّ الخطوات التي توصلنا إليها، لمّ لا تفهمين ما أقول؟ فاطمة كذلك لا تفهم. تقول إني ألهت بلا ثمن غشيمة. وحياة الله أكبر غشيمة عرفها التاريخ. تقول بلا ثمن؟ وماذا عن هذه العمارة، ماذا عن العقارات الأخرى؟ أيّ ثمن أبغيه أكبر؟ الأثمان فاقت الخيال، الحمد لله، صفقة رابحة، صفقتي مع الحياة رابحة، هي التي تقضي أيامها في الخسران. ماذا؟ لا، لم أرها بعد، ستستقبلني بوجه مقلوب، اعتادت على ذلك، كأنّها تعاقبني، لكنني عاقبتها هذه المرّة، أنا من تولّى الحساب، تسألين أم تسخرين؟ ربّنا؟ لا، لستُ ربنا لكنني ربّ منزلها، وعليها طاعتي، من تظن نفسها؟ على رأسها ريشة، وأنا على رأسي ألف ريشة، ها أنظري، انظري. وأخيراً، وصلنا، الحمد لله.

وصلنا، لكن وجهك أصفر، تدخين؟ لا، لا تفعلين لمّ وجهك أصفر هكذا، آ، فهمت، فاطمة لا تطعمك جيّداً، لم تعد تستطيع إطعام نفسها أصلاً. بلا حيلّ تتقاعس عن كلّ واجباتها، تقولين عيب؟

ليس أمام زياد: ما زياد حبيبنا، ما عاد غريباً، أحبه على محبتك والله، ومحبتك من محبة فاطمة لو تدرين «وكرمال عين يكرم مرج عيون» تعرفين هذا المثل؟ لا تعرفينه. انظري، انظري، أمامك المشهد الرائع كلّ الوسط ينبسط أمامك كراحة الكفّ، وهذا البحر المذهل الزرقة يحوطه كأنه الزنار المخملي، تسخرين مني؟ الشقة جعلتني شاعراً؟ أجل، ولم لا؟ موقع يجعل الحمار يشعر ويقول الشعر. لذلك الحق على فاطمة طبعاً، ليس لأنها لم تأتِ ليس لأنها حمارة حاشا قدرها، ولكن لأنها لم تعد تشعر بهذه الأيام.

أنا أستطيع أن أحلّ عقدها؟ ماذا؟ هذا رأيك النهائي؟ لا أحد يستطيع شيئاً لأحدٍ يا صغيرتي، مجرد هراء ليس إلا، التعزية، أكرهها، هذه الكلمات التعزية، الترضية، التسوية التنازلات، تفه أيّ معنوه اخترع هذه الكلمات. الحياة تحتاجُ منّا أن نقبض عليها بكلتا يدينا، وأن نعتصرها اعتصاراً كما نعتصر امرأة بين الذراعين اعتصاراً كي نشتمّ عبيرها الحقيقيّ. ماذا أخجلت عذريتك؟

إيّاك أن تدعي الخجل أمامي، لا، لا، أعرف كيف تفكر فتيات هذه الأيام، وكيف أنهنّ بتن صائدات ماهرات، يعرفن كيف يضعن الهدف أمام أعينهنّ، وكيف يصبنه في قلبه تماماً. أثرثر كثيراً، رأسك يؤلمك، مؤكد ليس مني، بل من الارتفاع، الارتفاع يخفّض ضغط الدم، أليس كذلك؟ تعلّمت هذا الأمر في المدرسة؟ لم أنس تكاليفها بعد وتناكفينني هاهاها، إيّاك أن تغضبي، أنا لا أريد إغضابك، أريد تسليتك فقط، نحن نتسلّى الآن ليس إلا. ماذا هل تجد هذه الشقق زبائن لها؟ ست عشرة شقة تمّ بيعها، لأجانب وخليجيين إنهم يتهافتون على الشراء، لبنانيون لا، لا مكان لهم هنا. ها وأنت يا زياد مالك تبدو صامتاً، لا يعجبك الكلام؟ جيّد، بلى يعجبك، وماذا عن العمل في شركتي؟ كذلك يعجبك، هذا جيّد. قيل لي إنك أخذت قرضاً من البنك، وطلبت إفادة براتبك، أجل أجل، ولم لا؟ تريد أن تؤمن لنفسك شقة؟ حقك، حقك الطبيعي يا أخي، لم تخجل هكذا؟ مازلت طري العود. لم تقل لي كم عمرك؟ تسعة وعشرون عاماً، القرض لمدة ثلاثين سنة؟ كثير يعني يصبح عمرك تسعة وخمسين حين تنتهي من القرض، وبعدها تموت هاهاها، بعد الشرّ لا لا أنا أمزح فقط، أنت شيخ الشباب. وأنت يا نيرمين في الثالثة والعشرين؟ فرق طبيعي للغاية؟ لا أنسى، وكيف أنسى عمر ابنتي بالتبني؟

لم تتبنك فاطمة رسمياً؟ لكنها فعلت عملياً، غصباً عني؟ مؤكد ليس غصباً عني، فأنا أحبك كابنتي، وتعرفين هذا الأمر تماماً. لكنني لم أعد أحبّ خالتك، وهي تترك ذلك، وربما لا تدرك، وربما أنا أحبّها، وإلا لم أتمسك بها رغم عنادها «من نسيّ قديمه تاه»، وأنا يا حرام أخاف أن أتوه إذا تخليت عنها، لا لا اطمئني لن أتخلي عنها، إنّها البركة كلها، الزوجة الأولى، والبُلغة الأولى، ماذا ستقول حين ترى الزوجة الجديدة؟ الزوجة رقم ثلاثة، على فكرة هذه الشقة جارة البحر لها، في المبدأ هي للسكنى معها، جديدة وصغيرة وجميلة، تحتاج شقة جديدة في هذا الوسط الحالم بالذات، متى أصبحت قديمة يحلّها الحلال، نعرف عندها ماذا نفع، تماماً لكل داء دواء، ودواء خالتك الكي، إيّاك أن تقولي ثانياً إنّها تحسّ بالفراغ، هي التي تخلق الفراغ في كل مكان تحلّ فيه تزرعه بالصمت، الصمت يأكل كلّ شيء حولها. أنا البيت، وأنا السرير الذي تأوي إليه، وفي كل يوم بعد أن تنهض تبصق عليه، ابتلّ وجهي بالبصاق، إيّاك أن تحدثيني عن فاطمة بعد الآن، انتبهي أمامك النزول صعب، تماماً كالصعود، لا ربما هو أصعب، هي لا تفهم الآن أنني لا أستطيع العودة إلى الورا، يا ربي لم لا تفهم هذه المرأة ما أقول، انقطع خط ما بيننا، صعب، صعب يا نيرمين الحياة مع امرأة صامتة، عيناها تقولان كلّ الحقد، وفمها يواجهك بالصمت وبالعتاب؛ في بداية حياتنا

الزوجية كانت تتدفق كمياه شلال، لا أستطيع الفكاك من إسارها ومن تدفقها، نجحت نعم نجحت في البداية جعلها تنبجس وتتفجر وتتدفق، أنا صنعتها، واستمعت إلى صخب الحياة الضاح في داخلها يحملني لا أعرف إلى أين؟ كان زمننا كثيفاً حينها مشبعاً بالحياة والرغبة، اليوم حياتنا صحراء قاحلة، لا شيء يصور فيها سوى الريح، تعرفين ريح الصحراء ناشفة تترك الفم جافاً مالحاً مرّاً هاهها، أبحث عن الرطوبة الآن في مكان آخر، أتتنفس الحياة ههنا بعيداً عن منزل خالتك، تفهمين يا نرمين؟ لم أحدثك بهذا الكلام؟ هو كلام لم أقله لأحد، ولا حتى لها، تعتقدين أننا يجب أن نتصارع؟ مثل إجري، ما عاد الآن يعنيني هذا الموضوع، بتّ على الضفة الأخرى، ولست مستعداً للعودة بعد، إذا أرادت، هي من عليه أن يسبح باتجاهي.

ها قد وصلنا، تعبتي مجدداً؟ ووجهك شاحب من جديد، أصفر، مع أنّ الهبوط أسهل وأسرع، ليس من الدرج من الحديث إذاً؟ تحبين فاطمة إلى هذه الدرجة؟ وإذاً تحدثي معها، عقليها، أنا لست مستعداً، أسألها لماذا تصرّ على أن تخرج كل شيء وراءنا، تصرّ على حمل كلّ السلال المحشوة بالخراب وبالتراب، أسألها يا نيرمين لماذا تصرّ على بناء كلّ هذه السدود في وجهي؟ وأنا ربّ من شيّد السدود وهدّها على رأسها، وعلى رؤوس كل من لا يريدون!

ما إن وصلنا إلى الطابق الأرضي حتى سلّم علينا حيّان، ومضى... كأنه لم يكن معنا في جولة!
وكأنه لم يكن يتحدّث في أكثر المواضيع حميميّة.
صافحنا ومضى...

لم يلتفت وراءه. تكلم ثم انطلق ليعلو صوته في أنحاء المكان يأمر عاملاً هنا، يوجّه مهندساً هناك، يطلب من مجموعة رجال متحلقين إنجاز مهمة سريعة، نسينا تماماً، وفتح صفحة أخرى في دفتره. كان لا بدّ لنا من الرّحيل، انتهى دورنا، عدنا إلى حيث ركنت سيارتي، لا يمتلك زياد سيارة. نقصد الشقة التي اشتراها زياد، اطمأن بعد التحاقه بشركة حيّان أنه قد بات يمتلك راتباً ثابتاً فاشترها، أعانه أخوه في مبلغ المقدّم، لكنّ التقسيط سيكون لفترة طويلة كما قال حيّان، قد نموت قبل أن تنتهي منه، ولكن لِمَ أستغرب أليست كلّ حياتنا في هذا البلد تقسيطاً، ما الجديد في الأمر؟ نحن نحيا بالتقسيط، يقسّطون لنا المشاريع، يقسّطون الزودة، يقسّطون الكهرباء والماء، حتى إنهم يقسّطون لنا الموت، كلّ شيء بالتقسيط. لِمَ أتوقف عند موضوع الشقة؟ عالمٌ يحيا بالتقسيط.

أخبرني زياد أنّ الشقة على الجناح، سلكت جسر سليم سلام، تزعجني القيادة في داخله، يمتلئ صدري بثاني أكسيد الكربون، أكاد أختنق عندها، أتنفس الصعداء بعد أن أخرج منه. اقترح زياد أن يتولى القيادة عني، نصل بذلك أسرع. يعرف المنطقة أفضل مني.

اتجه نحو BHV أو ما كان كذلك سابقاً، اشتراه منذ فترة أحد الخليجين المتمولين، بتنا نراهم بكثرة في بلادنا، استمرّ بعد ذلك يتقدم إلى الأمام.

نهضة عمرانية لافتة على الجانبين. البلد بأكمله ورشة ناشطة، مولات جديدة ما كانت منذ فترة، خوري هوم، قبلان هوم، حُكيم، استمرّ زياد يتقدّم إلى الأمام، تقاطع صغير، وينقطع سيل العمارات الفخمة، والسيارات الفاخرة الجديدة، نصل إلى شارع فيه بنايات متوسطة الارتفاع، متوسطة الهيئة، يتقدّم زياد مسافة، بعدها يركن السيارة أمام إحدى تلك البنايات، مشيراً:
- هنا.

نزلت. الهبوط سهل، قال حيّان.

لا، ليس سهلاً بالمرّة.

الشقة كانت منجزة تقريباً...

أحسست كأنني في علبة كبيرة، وفيها مربّعات صغيرة، كلّ غرفة علبة، وفي الزاوية مربعان صغيران هما المطبخ والحمام. حمامٌ واحد في كلّ الشقة.

انقبض قلبي، ما كان يجب أن أرى شقة حيّان اليوم بالذات. كأنني كنت في السّماء ثم دخلت جُحراً، لكن أفضل ما فيه هو زياد يقف إلى جوارني كالفراشة تحوم حول المصباح.

كان الشاب يتنفس حباً إلى جوارِي، الشقة تعبق بحبه، وبأنفاسنا، يخفق قلبي في كل مرة ينظر إليّ، في كل مرة يأخذ يدي بين أصابعه يناغيها ويحبّها، أحسّ عندها وكأنني لأزال مراهقة تعدو، يخبرني أنّ ما يسعده في علاقتنا أنّها منذ اليوم الأوّل مثار دهشته، ومثار توهّجه، وأنها تجعله دائماً في حالة ترقب وانتباه.

وأنت سعيدٌ لأنني أحسّ به دون أن يتكلم، وأنته يعبّد الأرض التي أمشي عليها، يتمنى أن يجعلني أسعد النساء، وأهنأ النساء بالألأ، وأن مصيري لن يكون لحظة كمصير فاطمة، لأنه لن يتوقف عن حبي يوماً، سيموت ببساطة عندها. ولن يسأم من النظر في عينيّ والاسترخاء فيهما.

يقول لو تطيعه الحياة لكان طلب منها أن تعيده إلى الخلف، إلى بداية وعيه، ليتعرّف إليّ من زمان، منذ عشر سنوات، يغار أن تمرّ سنة من وعيي لم أكن فيها معه. يقول لي: الحياة تستحقّ أن تُعاش بحقّ.

أقول له: إنني أرفض التطلع إلى الخلف، وأن علينا أن نخطط للأمام، حدّثته عن آخر الكتب التي أقرأ، عن المسرحية الهزليّة التي شاهدها، ولم تعجبني، علّقت: لا يمكن لمسرح أن ينهض في أمة ميّنة، لم يبدُ مهتماً بالموضوع، ترنمت بأخر مقطوعة موسيقية سمعتها وأعجبتني، استعرضتُ له بعض ماضيّ مع حيان وخالتي، دافع عن الرجل، يحترم طموحه واجتهاده، دافعت عن فاطمة بشراسة، قلت المرأة لا تستحقّ ما يفعل معها، للمرأة أولوياتها كذلك، تبادلنا تفاصيل لم نفكر فيها أبداً ونحن بعيدين عن بعض، أبديت ملاحظة كنت حبستها في داخلي سابقاً أن الشقة صغيرة، لكنني أحببتها لأنه فيها، ضمنى بين ذراعيه وهو يرتجف انفعالاً، قبلني بلهجة ثمّ هدأ وأنا أستجيب له، وأدوب بين يديه كما تذوب قطعة السكر في كوب الشاي الساخن، استسلمنا لحلم لذيذ رقيق، لم أفق منه إلا على صوت رنين هاتفي. تكثف الزمن في لحظاتٍ لينحلّ بعدها ويدوب كما يفعل كلّ شيء في هذه الحياة.

القسم الثالث

أوراق مختلطة

... كلّ ذلك يهجم
وينقضُّ علينا من دون توقّف
لكي يعاقب لا كفاية
قلوبنا المُترعة.
الشاعر الألمانيريكه

عندما وقفتُ أمام قبر أمِّي، لبستني قشعريرةٌ باردة.
كان كلُّ ما فيّ ثلجياً أبيض، لم أعد أعرف كيف أقطع الدَّهول الذي غرقتُ فيه، لأعود إلى نفسي،
عندما عدتُ أخيراً بعد جهدٍ مضنٍ، كان رأسي فارغاً.

لا أجيبُ عن كلامٍ عليّةٍ أختي، لم تنقطع ثرثرتها طوال الفترة التي لبثنا خلالها في المقبرة، هي
قليلة الكلام في منزلها، تخرجُ يصيبها إسهالٌ كلامي، لا تتوقف، تروح تعلقُ على الكبيرة
والصغيرة، أشجار السنديان المتعالية فوق الأضرحة، حبات البلوط والأوراق اليابسة التي لا تجد
من يجمعها، المياه المنسابة في أماكن متعددة، أحدهم سقى ورود الضريح الذي يخصُّ قريبه،
وتركُ صنوبر المياه مفتوحاً، سألت في الأثناء.

عليّة لا تصمت، كأنها في نزهة، تتكلم في كلِّ شيء، أمنا المرحومة، ذكرياتها، أحبائها، ماذا فعلت
بملابسها التي خلّفناها، وكيف وزعتها على دور الأيتام، طبيخها الذي لا يُعلى عليه، القورما الشهية
التي كانت تحضرها. تتحدّث وتمصص شفثيها. الله يرحمها أقول بصوت خافت:

- الله يرحمها، لا أحد في الدنّيا يطبخ اللي كانت تطبخه.

لا أعلق.

يبقى وجهي جامداً، أقرأ الفاتحة، أمسحُ بكفي وجهي، لا أفهم لِمَ نفعل ذلك، تقرأها بلهوجة وتعود
تثرثر.

تتأبط ذراعي الآن، أوراق السنديان اليابسة تخشخش تحت أقدامنا، يعجبني صوتها، تتوكأ عليّة
عليّ، تخبرني أنّ ساقها تؤلمها، وأنها باتت تحتاج إلى مِسَدِّ لها، أعلمها الطبيب بذلك حين زارته،
ضغط دمها مرتفع، لا تعرف السبب.

- لا شيء يرفع ضغط دمي.

تقول لي، وهي تلهث.

ربّما حزنها على زوجها رحمه الله؟ لكنّ الوقت قد مضى، وقت طويل، خمسة عشر عاماً، ما عاد
تذكّره يجرح قلبها كما كان يفعل سابقاً، صار تذكراً أقرب إلى الحنان، تبتسم له حين يعنّ على
بالها، وتضحك حين تتذكر نكاته وتهافتة عليها، زوجها كان لا يشبع منها، كيفما حارتُ ودارت
أمام ناظريه يستملحها، ويمدّ يده عليها - نفسه خضراء - مرّة يربّت مؤخرتها، ويشهق ما شاء الله!
مرّة يزغدها في بطنها ويمسّ عليها، أحياناً يقرص صدرها وهي تمرّ أمامه، تصفع كفه، وتبرطم،
وقلبها يزغرد:

- إستح يراك أولادك، لقد كبروا.

يعلق ببساطة:

- طظّ، عندي إيّاك بالدنّي.

دَلَّهَا كثيراً ذلك الرَّجُل، تعرف أنَّه أحبُّها حتى آخر أنفاسه، ربَّما لذلك انفجر قلبه - تضحك - ومات باكراً، فطس، لم يتحمل كمية الحبِّ التي حملها لها فطقَّ وانفجر، مات المسكين في الخمسين، لم يتمتَّع برؤية أولاده كباراً، ولا بأحفاده الذين تنعم هي بقبلاهم الطرية الآن، تلتفت نحوي، وتقول بابتسامة عريضة:

- اشتقتلُّه.

أهزَّ رأسي، أبتسم، أغبطها على حبِّها لزوجها، استمرَّ حتى بعد موته، أحاول تذكُّر نكهة طيبة لشيء أحببته في حيَّان بعد بدء خلافاتنا، أفشل، تتذكَّر عليَّة فجأة أن عليها الاقتراب من قبره، تقرُّأ له الفاتحة، وتمسِّد رخامه الذي استحال بياضه، تبتسم برقة، تدعو له بالرَّحمة، تحادثه بصوت خافت، تعاتبه، لا أعود أسمع صوتها، تنضح الحميميَّة من نبراتها، أبتعد، أغار مجدِّداً، أفكِّر بأن في هذا السَّكون نعمةً ما بعدها، وأنَّ حيَّان لم يترك أمامي باباً للسَّكينة معه وإليه إلا أغلقه، وأنَّه أتى إلى منزلنا البارحة مساءً، لا ليسلم عليَّ، ويهنئني بسلامة العودة، بل ليطمئنَّ فقط أنَّه مازال بإمكانه إغصابي رغم رحلة استجمامي، وأن بإمكانه أن يجعلني أنتفض من قمة رأسي حتى أخصم قدمي حينما يقرر هو فعل ذلك.

لا أدري كيف تستحيل المحادثات بيننا معارك ضارية في لمحَّة، في طرفة عين، لا أذكر عمَّا كان يتحدَّث تحديداً، آه، ربَّما كان يسخر من السَّمرة التي اكتسبتها حين طلبت منه بهدوء أن يطلقني، شريطة أن يترك لي البيت الذي دفنت فيه مال عمري، وشاركت في بنائه وتأثيثه. قلت له كلَّ ما تبقى غير ذلك هو لك، لا أريد منك شيئاً، حتى النفقة لا أريدها، لكن تترك منزلنا هذا.

ابتسم بلؤم، وأجاب وهو يصرف بأسنانه:

- لن أعطيك البيت حتى لو رجعت إلى رحم أمك. انفهرت. انصرف هو بعد أن داعب خذي وهو يغادرني. عليَّة تقترب مني مجدِّداً، أنهت حديثها مع المرحوم، وعادت إليَّ، أمسكتني من كتفي اليسرى، وحاذتني في سيري البطيء.

- بلى، بلى لا أحد غيرها يستطيع رفع ضغط دمي، هي مقصوفة الرِّقبة زوجة بكري وحبیب قلبي عماد، الولد الذي أحببته أكثر من ضياء عيني. أتمم:

- إنَّه رجل كبير وليس ولدأ.

- يعني حين كان، وحدها الملعونة تستطيع رفع ضغطي وضغط كل من يقترب منها.

- أهمس:

- سارية؟

لا تسمعني.

- وجهها الأصفر يصبح كالحامضة المصفرة، بمجرد أن أراها ينخض دمي، يفور، أغلي في داخلي، لا شيء يستطيع عندها تهدئتي، تتحدَّث مع زوجها، ابني، وكأنه ولد صغير، تقول له إذهب وتعال، خذ واجلس وقل ولا تقل، ولولا الحياء لكأنت طلبت منه أن يخرس، ويسدِّ بوزه نهائياً، عليه أن يعمل ويأتيها بالأموال تحشو بطنها الكبير بها، يشتغل كالثور طوال النَّهار، ولا تريد سماع صوته ولا تعليقاته، حمار كبير، صدقيني ابن اختك هذا حمارٌ كبير، ليس كسائر أخوته، تجلس في

البيت لا عمل ولا شاغل يشغل بالها، ورغم ذلك تطالبه بخادمة تريحتها، لكي تضمن لمؤخرتها أن تزداد طولاً وعرضاً وامتداداً، يا عيب الشوم على الرجال، خدمت طوال عمري أسرة طويلة عريضة، ولم أطلب من أحد يوماً أن يساعدني، يا عيب الشوم.

- أفهميني ماذا تفعل له حتى يستكين هكذا بين يديها، ها ماذا تفعل له؟

أزغد عليّة من ذراعها، أذكّرها بأننا مازلنا في المقبرة، وبأنّ للمكان حرمة، لو تدري. تؤشّر بيدها لا مبالية، تعلق:

- نحن نخرج منها، لا بأس، ما بك ضيقة هكذا؟ لا تطيقين كلمة.

لا أنفعل، لا أنزعج، لا أتحمس مع أو ضدّ، أرغب أن يتحرّك داخلي لشيء، يعجز داخلي عن الاهتمام بأي تفصيل ممّا تقول. أجيب أحياناً عن بعض ما تسألني، أهزّ رأسي نفيّاً أو إيجاباً، بتحريكه صعوداً أو هبوطاً، لا يخرج الصوّت من فمي، تضربني على كتفي بخفّة:

- ما بك؟

لا أجيب.

في السيارة تستأنف الكلام، لم تتعب بعد، تخبرني أنها قلقة اليوم على نيرمين:

- لا تعجبني أحوالها، أريد لها أن تتزوّج وتريحني بقي.

فجأة يرتفع جدارٌ بيني وبين العالم، لا أعود أرى أو أسمع شيئاً. تحدثني عن خروجها طوال الوقت مع خطيبها زياد، أمرٌ زائدٌ عن الحدّ.

أقضي وقتاً صامتة، بصري يتملّى دون أن يرى الأشجار على جانبي الطريق. أريد أن أشاهد جمالاً ما، مشهداً مختلفاً، ما ينبغي الاحتفاظ به، وما ينبغي التخلص منه، حيث أبحث في داخلي أجدُ ما يخزي، ما يدعو للخجل، لكن ككل شيء آخر، عش مع الخزي فترة كافية، يصبح جزءاً لا يتجزأ من ذاتك، تفصيلاً من تفاصيل حياتك. أشعر أن الشباب والمرح قد تسرّباً مني قطرة قطرة بفعل الضغط الشديد الذي تشكّله اللحظات، وهي تمرّ.

الخسارة ليست في الفقد، إنّها في إحساس العجز في نفوسنا، عجزٌ عن أيّ شيء يوقف الخسارة.

عليّة تستمرّ تسأل:

- ما بك؟

- لا شيء.

في داخلي أقول:

- كلّ شيء.

- اسمعي، فكّرت أن أحسم الأمور هذه المرّة، فأفرض على أخوتها الشباب مساعدتها، نوّمن الشقة، نوّثتها لها فتنزوج، لن أنتظر هذا الزيادة حتى يكوّن نفسه، قد أموت قبل أن يفعل، الدنيا ولعانة حولنا والأسعار كذلك، ولا وقت للانتظار، على أخوتها إذًا، أن يتحركوا، ها ما رأيك؟

- كما ترين.

- وأنت؟

- ما بي؟

- ماذا ترين أنت؟ أليست بمثابة ابنتك، لِمَ أنتِ بليدة هكذا؟

- أعتقد أن هذا شأنها وشأن زياد، هما من يحسمان الأمور في النهاية.

- هكذا إذاً؟

- هكذا، ببساطة لا تتدخلي، هذه مسائل حساسة...

- كلّه بات حساساً، أشكو إلى رُلى غمّي من زوجة عماد تقول لي هذه مسائل حساسة، أطلب منها أن تحادثها قليلاً لكي تحسّن كلامها مع أخيك، تقول لي هذا إخراجٌ لا معنى له، وأن الكلام لن يغيّر ها، وأنت تقولين لي، لا تتدخلي هذه مسائل حساسة، ما حاجتي أنا بعدُ في الحياة؟ والكَلّ يرفض تدخلي، وكلامي وأرائي؟ ها ما حاجتي؟

لأوّل مرّة أرى عليّة غاضبة.

يبدو أنّ الهموم لا تدع أحداً في حاله.

ينبغي أن نبنّي لها قبراً ندفنها فيه هي الأخرى، الهموم، نرتاح عندها؟!؟

أحسّ أنّي بحاجة إلى رؤية نادية الآن، قد أجد عندها إجابة ما، من يدري...؟

[23]

شكّلنا نادياً، وجمانة وأنا مجموعة متجانسة من الصديقات فترة طويلة من الزمن. جمعنا بداية منطقة جغرافية واحدة انتمينا إليها، وعائلات متوسطة الأحوال والمعاش نبتنا في أحضانها.

جومانة كانت فاكهة مجموعتنا، ضاحكة، منطلقة، حيوية، لا تعرف كيف تستقرّ على كرسيها إذا جلست. تبدأ بالكلام فلا تترك فرصة للآخرين ليدلوا برأي أو بكلمة، تتدفق الكلمات من فمها سيلاً جارفاً، مضحكاً ساخرأً في غالب الأحيان، فينصت الجميع. معلمة للرياضة البدنية، وللرياضة اللسانية، تدرس مادتها في مدرسة البلدة الرسمية.

لا أحد يستطيع مجاراتها لا في الركض ولا في الكلام، خفيفة رشيقة، لكنّ ملامحها لم تكن جميلة بالمرّة.

تتخذ من هذه الحقيقة مادة للتندرّ دون إحراج، تقول ببساطة متناهية:

- لا أحد أبشع مني.

ثمّ تردف:

- ولا أحد أهضم مني، هه.

أخبرتنا دائماً أنّها لن تجد من يجرؤ على الزواج بها، وعلى احتمال خلقتها طوال الوقت في منزله. كانت أوّل واحدة تزوجت بيننا.

نادية أستاذة الاجتماعيات في القسم الثانوي، تدرّسها في ثانوية خاصة بالمنطقة، استقرت فيها منذ بداية ممارستها المهنية، تعتبر ذلك غلطة حياتها، لأنها اكتشفت فيما بعد أنّ التعليم في الثانويات الرسمية أكثر أماناً، وراحة وتقديراً، وأنّ التعليم في القطاع الخاص هدرٌ سخيفٌ للجهد البشريّ. غلطة كغلطتها مع يحيى. أما أنا فربّما كان حظي المهني أفضل، إذ كنت أحمل إجازة في الاجتماعيات كذلك، لكنني تعاقدت خلال عددٍ من السنوات مع ثانويات رسمية لتدريس المادة، أنتقل خلالها من واحدة إلى أخرى، وحين أجرى مجلس الخدمة المدنيّة المباراة المحصورة بالأساتذة المتعاقدين مع الثانويات أجريت الامتحان، وفزت بتفوق، ليتمّ فرزّي بعدها للتعليم في ثانوية رسمية مختلطة للبنين والبنات في المنطقة القريبة من بلدتنا، هناك وجدت خليطاً عجباً من الطلاب، ومن الأهالي الذين يرعونهم، والذين كانت لهم مفاهيم خاصّة عن الحياة، وعن التعليم، اضطرت إلى التعامل معهم حوالى اثنتي عشرة سنة قبل أن يشجعني حيّان، وبعد ذلك يدفعني دفعاً إلى الاستقالة حتى أرتاح من آلام رقبتني، ومن انزعاجي الدائم، وحتى لا يُقال، وهذا هو الأهمّ، إن الرجل زوجي رجل الأعمال الناجح، لا يستطيع الإنفاق عليّ، أنا زوجته من ماله الخاص، وأنه لا يريحتها، ويريح جسدها حتى تتمكن من إنجاب ولي العهد له. لكل هذه الأسباب تركت التعليم، وانصرفت للعناية بنفسي وبالسيد حيّان، وبتحضير جسدي لاستقبال مولود يرفض أن يأتي!

التقيت بحيّان حين كان لا يزال أستاذاً للغة العربية في إحدى المدارس الابتدائية الرّسمية، لاحقني بلا هوادة سنة كاملة، رفضت حبّه في البداية، بعد ذلك رحّت أليّن.

بالتأكيد وجدت فيه عندها إنساناً مختلفاً عصامياً وذا إصرار، وأعترف أنّه كان جذاباً في ذلك الوقت، ذليق اللسان، استطاع أن يفرش الدروب أمامي وروداً مختلفة الألوان.

أغواني وأنا بنت العشرين بالحياة الجميلة أحصلها على يديه المجاهدتين، وبالحبّ الوليّه يلقي بحنانه طوال سني الحياة حتى (يهري واحدنا الآخر) كما كان يعلن دائماً.

تزوجنا بعد سنتين. كان قد بدأ بدراسة الحقوق في بيروت بعد الظهر، متابِعاً قبل الظهر التعليم على طريقته الخاصة، لم أره يصحّح فرضاً أو مسابقة في يومٍ ما، ما أعرتُ الأمر اهتماماً.

- عمله، ولا أتدخّل فيه.

بعد ذلك فتح مكتباً للمحاماة في بيروت، ليبدأ ممارسة المهنة دون نجاح باهر، ودون فشل ذريع. استثمر في الوقت نفسه قطعة من الأرض البور التي تركها والده له في بيروت، حيث كان الأخير يعمل في تجارة الحبوب والعطارة والألبان وزيت الزيتون بالجملة قبل الحرب. أرض اشترأها بتراب المال في منطقة الشياح شارع مارون مسك ليرثها زوجي بعده، حارماً أخواته البنات من نصيبهن فيها، مستغلاً ثمنها الذي تضاعف مئات المرّات.

وتحايل فيما بعد على منزل الوالد في البلدة، أرضى أخواته بمبالغ زهيدة، وأنفق على المنزل مالاّ كثيراً وسنوات كاملة ليجعل منه بعد ذلك منزل الأحلام كما تخيلته منذ طفولته، وكما راح يعلن بعدها، محوّلاً إياه إلى فندق ريفي جميل تجري في حديقته الواسعة وفي قاعته الداخلية أفراح المنطقة الناهضة اقتصادياً لجملة من الأسباب.

لم يحتج حيّان إلى كثير من السنوات حتى يتورّم رصيده في البنوك، وحتى يكّدس عقارات لا تعد ولا تحصى، كلها مسجلة باسمه، طبعاً كل ذلك بعد أن هجر التعليم، وبعد أن حوّل مكتب المحاماة إلى محطة حقيقية للتجارات العقارية، وقد أيقن زوجي النبيه أنّها التجارة الأكثر ربحاً، والأكثر ضماناً في لبنان بالذات. بلد الطلعات والنزلات والهزّات والتقلّبات!

[24]

مساء كل يوم خميس كنا نلتقي، نحن الشَّلَّة، نتعشى، وتدخّن نادية النرجيلة، وتدعو بمناسبة وبلا مناسبة على يحيى، بعد أن غدرَ بها واستقرّ في كندا، بحيث بات الأمر ترنيمه لا بدّ من الاستماع إليها، والتسلي بها. نتبادل الأخبار والنكات، والحياة، ونستعذب اللحظات التي نقرشها بنكهتها المذهلة في تلك الجلسات.

تزوجت جمانة قبلنا نحن الاثنتين، رغم أننا كنا نفوقها جمالاً، لكنها وبحقّ فاقتنا بخفّة ظلّها، وبإقبالها على الحياة. تجتذب بسهولة إليها كلّ من يتعرّف بها.

كان زوجها حينذاك موظفاً بسيطاً في مؤسسة الضمان الاجتماعي، واحد من أولئك الذين دخلوا سلك الوظيفة لأنّ لهم ظهراً يحميهم. فعرفوا طريقهم بسرعة، وأثبتوا جدارتهم بطرق شتى. فنشط الرجل اقتصادياً، وأنعم على زوجته بالأموال، فأنعمت عليه بأربع بنات يشبهنها تماماً، استمرت تلد حتى تنجب له الصبي ففشلت. اقتنعت بعد إنجاب الرابعة بنصيبتها وقالت: نعمة. واعترفت بالمقابل أنّ مصيبتها بات لها أربع سيقان وتتبع ذلك بكركرة صاخبة. تنظر إلينا، وعيناها تلتمعان:

- لكنني تزوجت، وأنجبت وهذا هو الأهم، الحمد لله. نعمة.

بعدها تزوجت أنا حيّان، نادية كانت الأخيرة التي قامت بهذه الخطوة، وبعد تردد كبير، ومماظلة ما بعدها.

زواجنا باعد بين جلسائنا، لكنه لم يستطع القضاء عليها، صرنا نلتقي في الشهر مرّة. الشهر الماضي، وقبل رحلتي إلى مارماريس جلست جومانة على الكرسي، امتلاً بمؤخرتها، تأملتها بهدوء وباتزان وقتاً، لم أفهم كيف تدرس مادة الرياضة البدنية، وتحمل في الوقت عينه هذه الكميات من الدهون على مؤخرتها!

حاولت تخيلها، وهي تقفز وتتواثب، أضحكني خيالي. تفرقع ضحكها بين شدقيها بصخب حين يحدثها أحد عن الأمر، تقول:

- اللي عجبه.

وتخبط بكفها على مؤخرتها.

البارحة بالذات هاتفتني، قالت نلتقي على وجه السرعة. لبّيت الدعوة. لأوّل مرّة أراها تكاد تبكي، شيء ما يخنقها. سألتها عن السبب، قالت نادية. حاولت الاستفسار، لم تجبني، فضّلت أن أكتشف بنفسي. أعلمتني أنّها تريد استشارتي بأمر، بدا لي فيما بعد أنّه هو سبب الخلاف الحقيقي مع نادية.

حين بدأت الحديث عادت إلى طبيعتها العجولة، أخبرتني أن ابنتها مايا، خريجة الجامعة الأميركية في بيروت AUB والتي نالت إجازة في اختصاص إدارة الأعمال من هناك، حيث تابعت دراستها على حساب والدها فقط ثم توظفت بعد ذلك، وبسرعة قياسية في شركة محترمة وفي زمن تعدّد فيه الحصول على وظيفة. كانت الشركة واحدة من تلك الشركات التي تتولى دولة أجنبية هامّة

رعايتها من بعيد، وتبسط عليها ظلها، وينعم فيها الموظفون لديها ببعض الأعيان الخاصة شريطة أن يثبتوا إخلاصهم وتفانيهم بالعمل.

مايا هذه الفتاة المتعلمة غير الجميلة، ولكن المحظوظة فيما يبدو حظاً يفلق الصخر، تُحبُّ وتُحَبُّ بجنون، يحبُّها دانيال الشاب المسيحي وحيد والديه، يحبها ويتمنى حلول الساعة التي يجدها فيها مستقرة في منزله تنيره بوجودها، ويقدم لها بعدها فروض الطاعة الزوجية، وأمانتها، وأكثر من ذلك هي تُعلمه أنها مسلمة، ولا تتزوج إلا مسلماً، فيخبرها في اليوم التالي أنه مستعد لإشهار إسلامه، فقط حين ترضى به، وتعلن موافقتها الحقيقية على الاقتران به.

تخيلي فاطمة، أرجوك تخيلي، وفكري تماماً قبل أن تعطيني رأيك، وقبل أن تجيبيني إن كنا نوافق أم لا، لا تفعلي كما فعلت نادية، جن جنونها، ورممتني ورمت ابنتي بالكفر وبالإلحاد وبكبار الأمور، وعندما قلت إن الابنة ابنتي، وضعها حساس، لن تجد عريساً في كل يوم فهي كما تعرفين يعني، أقول يعني ليست جميلة، صرخت في وجهي بكل وقاحة ولؤم:

- طط، وبلا ما تتزوج مش أحسن ما تكفر، يه أنت جنيت تماماً، أنت وابنتك اللعينة، كيف تبيحين لنفسك حتى أن تفكري بالأمر، يلاً لا أعرفك، ولا تعرفيني يلاً خلصنا بقى وطردتني، أي والله طردتني من منزلها ... عشرة و...

واهتزّ جسد جومانة بالبكاء، بدت مقهورة حقاً، تسألني ما رأيي؟ لا أجز جواباً، المسألة دقيقة في هذا الموضوع بالذات، المكان والزمان يحكمان الحالة، في نهاية الجلسة قلت لها إن المسألة تخص ابنتها والشاب بالدرجة الأولى وإن عليهما التفكير بالموضوع من كل جوانبه.

شعرت أنني لم أرض جومانة بكلامي، ولم أرح قلبها، ولم أنفس غضبها على نادية، لكنّ جعيتي كانت فارغة فعلاً، أحسست أنني أنظر إليها من بعيد، أراها بشكل مغبّش، وعدتها أن أرى نادية، وأن أجعلها تعتذر لها وتطلب عفوها.

وإذاً، كان لا بدّ لي من رؤيتها...

بعض الأمور لا يسهل تجاوزها، قصدت منزل نادية، رغم أنني غاضبة منها، لم تحاول رؤيتي منذ عدت إلى لبنان، لم أفهم الأمر، انتظرت يوماً، يومين، أيّاماً، ولا خبر منها، في الحقيقة انشغل بالي، ربّما هي مريضة، ربّما ابنتها تشكو من أمراً، لكنّ حديثي مع جومانة دفع رأسي في اتجاه آخر.

بينما يدي تفرع الجرس، كنت أسمع أصواتاً تتعالى وضحكات، ينفث الباب، تقف نادية أمامي بكامل صحتها ولباسها، فستان طويل يكاد يلامس الأرض، وحجاب يغطي رأسها، ويرتفع عند مؤخرته بشكل لافت، قدّرت أنه شعرها قد صُفّف بطريقة دائرية، لكن لا، تذكرت أنّ شعرها كان قصيراً جداً حين تركتها، وأنا أعرف أنه لا يطول بسهولة، قلت ربّما.

رغم أنّها بادرت بصوت مرتفع إلى الترحيب بي، كأنها تُسمع الدنيا أنني أتيت:

- أهلاً، أهلاً فاطمة، تفضلي يا أهلاً وسهلاً.

إلا أنّ وجهها الذي أحفظ تقاسيمه عن ظهر قلب، وأعرف أفراده وأحزانه وانفعالاته ووجهها هذا لم يعكس ترحيباً حقيقياً.

في الداخل كان ثمة ثلاث نساء، كلهنّ يضعن حجابات محكمة، ويتحدّثن بصوت خافت، اختفى بمجرد وصولي، مددن أيديهن للتسليم عليّ بعد أن قدّمتني نادياً بـ :
- الأخت فاطمة.

اكتفين بهزّ الرؤوس، ومصمصمة الشفاه، كأنهن يأسفن على أمرٍ ما.
جلست.

بدا تماماً أنني قاطعت حديثاً منسجماً، عاتبْتُ نادياً خفيفاً، سألتها عن أحوالها وعن أحوال زوجها والبنّتين، سألتها لِمَ لَمْ تتصل بي على الأقل، وقلت لها مبروك ولم أزد.
أجابتنني بهدوء أنّ الجميع بخير، سألتني كأننا غريبتين، وكأنها لم تكن تحادثني كلّ يوم كذا مرّة عن الرحلة، وكيف قضيت الوقت وحدي، كأنها لم تكن تعرف كلّ التفاصيل، وكيف سبحت وحدي، وقالت عقبالك. وابتسمت ابتسامة باهتة.

اتسعت عيناوي، وأنا أنظر إليها كأني أذكرها بنفسي، وأجبت بحدّة:
- لا أعتقد.

تكهرب الجوّ بسرعة، بلمحة، تبادلّت الأخوات الأربع نظرات سريعة متوترة، ثمّ أطلقن حكماً فيما يبدو بينهن، تلطفت تلك التي تبدو أكبرهن سنّاً بسؤالني:

- لِمَ يا أخت فاطمة؟

- لم أفكر بالأمر.

تكلمت كمن تحادث طفلة غشيمة.

- لكن عليك التفكير به، لا تدري إحدانا متى تواجه خالقها، قد تكون الآخرة أقرب إليك من أنفاسك لو تدرين. ثمّ كيف تسافرين وحدك بلا زوجك، شرعاً... قالت ذلك، وقربت وجهها من وجهي، كانت هي أقرب إلى أنفاسي من أي شيء آخر لو تدري، وقفت منزعجة. قلت لنادية:
- أعود فيما بعد.

لم تستبقني.

لم تعلق على وقوفي، ولا على ذهابي، انتظرت حتى وصلت إلى الباب الخارجي، قالت لي، وهي تغلق الباب خلفي:

- الله يحميك ويهديك، مع السلامة.

لم أفهم إن كان ثمة نبرة ساخرة في لهجتها، أم أنا التي توهمت ذلك. اختلطت الأمور في نفسي وفي رأسي.

خرجت، لكنني التفت بعد إغلاق الباب خلفي أريد أن أتأكد حقاً من باب المنزل، هل هو المنزل الذي قضيت فيه رداً طويلاً من عمري أناوش فيه نادياً وتناوشني، وترتفع فيه ضحكاتنا وتعليقاتنا وانطلاقنا إلى ما لا نهاية. هل هو المنزل الدافئ عينه الذي كنت أهرب إليه من برود حيّان استظلّ في أحنائه ببعض الحنان.

البرودة عينها تعاودني وتسكنني، وتزرعني خواء لا أقوى لا على احتماله ولا على صده عني، شعرت أن قدمي تفتان على حافة شاهق مهول الارتفاع، وأني أكاد أهوي، كل ما حولي يدور ويهوي، السرعة هائلة لا أقوى على استيعابها، عدت إلى البيت بيتي، كان ثمة ضباب كثيف يلفني كغلالة سميكة لا تسمح لي بالإفلات منها، يداي مغلولتان، رجلاي، كلّ أعضائي ثابتة أعجز عن تحريكها. أشعر باليباس، أمدّ يدي لأمسك كوب الماء أشرب أحسّ أنني أجزّ أطناناً أريد تقريبها مني، الثقل هائل، الضغط مخيف على صدغي، وشيء ما لعين يضغط على يافوخي من داخله، يريد الخروج من أعلى رأسي، يسقط الكوب من يدي، المحمول في حضني، أجاهد لأضغط على رقم نيرمين أكثر من مرّة، أسمع صوتها يناديني بعد ذلك بلهفة:

- فاطمة ما بك، فاطمة ما بك، أين أنت؟

لم لا تجيبين؟ فاطمة...

ثم يختفي بعد ذلك سمعي...

[25]

أقلقتني اتصال فاطمة، لكنني لم أتصوّر إطلاقاً أن أجدّها بالحالة التي وجدتها عليها. كانت متشنجة تماماً، كلّ ما فيها متصلّب مشدود، باتت كأنّها شجرة يابسة سهلة الكسر، يستحيل تحريك أي غصن منها إلا بقطعه، عيناها متسعّتان مخيفتان، ثبتنا في اتجاه واحد. ثمّة رغوّة بيضاء تنزلق من فمها.

لا أعرف كم صرخت، ولا أذكر أنّي فتحت الباب للجيران الذين تكاثروا حولي بحيث كدت أضيع بينهم، كلّ ما أذكره أنّ دماغي كان شبه مشلول، وأنّي كنت ذاهلة، وفمي يردد بلا وعي:
- خذوها إلى الجامعة الأميركية.

لا أعتقد أنّي أعرف الشاب الذي تولّى نقلنا بسيارته الكبيرة، ولم أنتبه من رفع فاطمة، وكيف حشرت نفسي إلى جانبها حشراً أمسك بيدها، أدعكها، أحاول إعادة الحرارة إليها، ومن الذي وضع حقيبتني وحقيبتها في حجري، كلّ ما أعرفه أنّي رفضت أن أرافق زياداً بسيارتي التي تولّى هو قيادتها، وأنّي لم أر من الطريق سوى وجه فاطمة وسوى خوفي، وأنّي وُضعت بعدها في مكتب الدخول، والآخرين تولوا إدخال فاطمة إلى الطوارئ، ومنها إلى العناية المركزة، طلبت من زياد عدم تركها.

كان قد مرّ حوالي ثلاث ساعات حين تمكنت من الدخول لرؤيتها، عبر الزجاج فقط، لم يسمحوا لي بالاقتراب منها، سألت عن الطبيب الذي يعاينها، قيل لي سيمرّ في صباح اليوم التالي، والحال الآن مستقرة، فاهدئي.

الكلّ يسألني:

- ابنتها؟

أهزّ برأسي موافقة، والدموع تتساقط من عينيّ، زياد إلى جانبي يحتضنني، يأخذ كفي بين يديه، لكن لا أتوقف عن الارتجاج، قلبي يتوجع، مسكين، خائف على فاطمة حتى الموت، يربعه رؤية وجهها الشاحب بتلك الطريقة الهوجاء.

أدعو لها بكل كياني أن تنهض بالسلامة، أحاول أن أقرأ في سرّي ما تيسّر من الآيات القرآنية التي أحفظ من قصار السور، أخفق تماماً ما إن أبدأ بسورة حتى تهرب آياتها من رأسي.

أخاف من مشهد فاطمة، من عينيها المتسعّتين، في وجهها الشاحب، أخاف من الوجع الذي يسعى في باطني، ويُفلت مني رغم إرادتي، وينسحب تحت حافة الباب الزجاجي السميك، ليقف بجوار فاطمة، يمسك بيدها مجدداً، ويتملأها، ويتملأ ملامحها الصفراء صفرة الموت، وأنقبض حين أحسّ بمقدار غلاوتها على قلبي، أنقبض أكثر وأنا أفكّر باللحظات الأخيرة التي أصابها فيها ما أصابها، ولم أكن حينها إلى جانبها.

أين كنت؟ كنت في أحضان زياد. أكره نفسي، أردلها. في اللحظة الحقيقية التي تحتاجني فيها لا تجدني. أهزّ برأسي.

زياد يعلن خوفه عليّ، يقول لي:

- ما بك تنهارين هكذا، أعرفك قوية، تماسكي. لا أسمع.

أطلب منه الاتصال بحيّان، وبالعائلة، وبعليّة أمي، وبأصدقائها، وبالذّنيا بأسرها.

ليست المرة الأولى التي تدخل فيها فاطمة المستشفى أعرف، لكن هذه المرّة تبدو أكثر قسوة، دخولٌ مختلف، مشهدها مختلف، ورعبٌ قلبي مختلف.

حيّان يحضر متفاجئاً، يعلن انزعاجه لعدم إخبارنا إيّاه قبل الآن، يهتّر حين يرى فاطمة في غرفة العناية المركّزة.

يقف وقتاً، يتأملها من بعيد، الآلات تحيط بها من كل جانب، دوائر صغيرة بيضاء على صدغيها، تخرج منها أسلاكٌ ممتدة تتصل بالآلات ترسم خطوطاً، وتصدر أصواتاً، أسلاك تبدو ملتصقة بأعلى صدرها، قائمة على سرايين قدميها الصّغيرتين، وصفرة هائلة تلو وجهها.

يضع يديه على عينيه، على رأسه، هل يبكي؟ عليّة تنهار بمجرد أن تراها، تبكي بحرارة، ترى حيّان، تنظر إليه بحدّة، تقول بصوت خافت:

- الله يقصف عمرك، قصّرت عمرها.

أنظر إليها بغضب، أعضّ على شفتيّ. تجلس على كنبه جانبيّة تبكي بصمت.

ريماس وسائر البنات إلى جوار ي يعانقنني، يحاولن تهدئتي، والاستفسار عما أريد، أقول لا شيء، فقط فلتتحرك هذه العقارب اللعينة ليس إلّا. الوقت بطيء في الأروقة البيضاء، كلّ ما حولي استحال فجأة أبيض.

أثوابٌ بيضاء، أيادٍ ترتدي قفازات بيضاء، وشراشف بيضاء وجدارن تماثلها، كلها يفترض لها أن توحى بالسلام والأمان، لكنها لا تفعل. تستحضر من حولي كلّ الأشباح، وكلّ الشياطين السّوداء تطلّ برؤوسها بمجرد أن يثقل جفناي، أرى أشكالاً سوداء مقززة تسعى حولي، وتحاول الإمساك بي وخنقي، حين أطردها باستماتة، تضحك كاشفة عن أسنان مرعبة بأشكالها وألوانها، وتلتفت فوراً على فاطمة الملقاة إلى جوار ي، أستيقظ مذعورة، صدري يعلو ويهبط، وأنفاسي تتلاحق بلا هوادة، يضمّني زياد إلى صدره، يقول، والألم يثقل جفنيه:

- ما بك، لم لا تهدئين، نيرمين اهدئي.

لا أهدأ، ولا أنام، صدري ضائق، وأنفاسي ثقيلة تنزّ أراً في رثتي، ثمّ تعلق في بلعومي وهي في طريقها إلى الخارج.

من منكم يستطيع إعادة عقارب الساعة إلى الوراء؟ أسأل زياداً الجالس بيأس إلى جوار ي، كانت الساعة قد بلغت الرابعة صباحاً، رفع يدي الملقاة في حجره، قبّلها، مسحها بخده، وقال لي:

- سأزعل منك إذا بقيت هكذا، لا أعرفك على هذه الشاكلة. أوجعت قلبي نيرمين.

الممرضة تمرّ أمامنا في صالون الزوار، تبتسم بلطافة، يتركني زياد وينهض، يهمس بأذنها، تهزّ رأسها وتمضي. أفتح عينيّ، الغرفة فارغة إلّا مني ومنه، الكلّ مضى، رفضت أنا أن أفعل، وبقي زياد معي.

بعد قليل أتت الممرضة، ناولتني كوباً فاتراً، قالت إنّه منشط، شربته، اكتشفت أنني كنت شديدة العطش، وتذكرت أنني لم أشرب شيئاً منذ الساعة مساءً.

احتضنني زياد مجدداً، وغرق رأسي في قاع سوداء سحيقة، لم تستطع قدمي الوصول إلى أرض صلبة فيها، بقيت أهوي، وأهوي وأهوي، وكلما توهمت أنني وصلت، وأنّ قدمي سترتظمان بشيء صلب أو رخو حتى، كان سقوطي يزداد تمادياً وسرعة وحدة، وأخيراً، أخيراً جداً، حركت قدمي بقوة، فارتطمتا بشيء صلب بارد.

فتحت عيني أتفحص ما وقعت عليه، وجدت نفسي ممدّدة على كنبه جلدية بيج، تنتهي بقبضة، حافة، من الستانلس فضية اللون، وزياد يجلس قبالي على كرسي عادي، أغلق عينيه، التعب يبدو على وجهه، وعلى ملابسه.

نهضتُ، فتح عينيه، اعتذرت لما كان، قبلني برقة، طلب مني أن أبقى مستريحة، رفضت نظرت إلى الساعة، كانت تشير إلى الثامنة صباحاً، طلبت منه أن يغادر ليرتاح، وبعدها يذهب إلى عمله، أكدت له أنني صرت أحسن، واعتذرت مجدداً على ضعفي.

قبل أن يغادر أحضر لي منقوشة، وكوباً من الحليب الدافئ، وفجاناً من القهوة كنت بأمس الحاجة إليها، طلب مني الانتباه لنفسي، ومضى.

كنت بحاجة إلى حنانه في هذا الوقت بالذات لكنني فضّلت مواجهة الموقف وحدي، فكّرت بأنّ عليّ استعادة شجاعتني، ورباطة جأشي، وأنّ فاطمة القوية دائماً، أو التي كانت تتظاهر أنّها كذلك في كلّ دقيقة، ترفض لي أن أكون ضعيفة هكذا، سرّت باتجاه الباب السّميك الذي فصلني عن حضنها منذ البارحة، نظرت إلى وجهها الشّاحب مجدداً، بدا لي أفضل مما كانت عليه البارحة، تمنيت أن تكون كذلك حقاً.

[26]

إنّه اليوم السادس لي في المستشفى...

قدّمت طلب إجازة من عملي، قال لي زميلٌ ألتقي به في المكتب أحياناً بالصدفة، إن إجازتي سترفض لأنني مازلت مبتدئة.

هزرت كتفيّ دليل لامبالاتي، وأعلنت:

- غير مهم الآن، ثمة ما هو أتمن أهتمّ به.

حيّان يروح ويجيء، زال هول المفاجأة عن وجهه، يروح ويجيء، ويسأل:

- ها، كيف الحال اليوم؟

شيءٌ ما في عينيه يخبرني أنّ لديه كلاماً يحتاج إلى البوح به. عليّة لم تخفِ دموعها، كلّما دخلت لتشاهد فاطمة عبر الزجاج عادت إلى النواح، وإلى ندب حظها، والقول:

- إنّ فاطمة لا تستحقّ ذلك، لم يا ربّي؟

وكأنّها تعاتب، تقول ثمّ تعضّ شفّتيها، وتستغفر ربّها. جومانة زارتني في المستشفى أكثر من مرّة، وانطلقت تثرثر، وتحدّث عن حالات مشابهة شفي أصحابها تماماً، وعادوا كالأحصنة التي تجري في السبّاق. تنصّحني:

- لا تحملي همّها، فاطمة قوية، ستقوم مما هي فيه أفضل من الأوّل، يه ما بك، لا أعرفك متشائمة هكذا؟

الكلّ يسأل ويهاتف ويطمئن إلا نادية، لم تأت، استغربت ضمناً، في اليوم الرابع أرسلت مع أحدهم لفافة أنيقة، فتحتها وجدت فيها مصحفاً كريماً متوسط الحجم مرفقاً مع ورقة كتب عليها بخطّ أنيق:

- الله يرحمها، ويرحمنا جميعاً.

توصيني أن أضعها - النسخة - تحت مخدتها أو قربها إذا سُمح لي بذلك، لم أعرف أفرح أم أحزن من هديتها. يرتجّ جسدي. وأنا أمسك الكتاب الكريم.

دخلت فاطمة في الـ Coma ، يخبرنا الطبيب أنّ خلايا كثيرة من دماغها قد ماتت، أتلفت، وأنه أجرى اللّازم خلال الجراحة التي تمت البارحة بنجاح تام، نظّف ما نظّف والآن ما علينا سوى الانتظار.

حين أسأله عن الأضرار الناتجة، يقول لي بابتسام مقتضب:

- فلننتظر الآن. أفضل ذلك.

وعندما أسأله عن الوقت الذي تستغرقه في غيبوبتها تلك يشير بيده إلى فوق:

- الله أعلم.

أحاول استدرأجه عله يطمئنني أكثر، أفضل.

في اليوم الثاني عشر جلس حيان أكثر ممّا يجلس عادة، تطف بالحديث معي، قَبَلني على جبيني كما كان يفعل وأنا صغيرة، ثم أخبرني، وكأنني لا أعرف، بأنّ الحياة قاسية، وبأنّ فيها خسائر غير محتسبة، لكنّ ذلك لا يمنعنا من مواصلة المسير.

ابتسمت له من خلال الآمي، وحادثت نفسي: أخيراً سينطق.

أخبرني أنّه سيقم افتتاحاً بعد خمسة أيام للمركز الخيري القائم في بنايته الجديدة في الوسط، وأنّه لو لم يكن قد ورّع بطاقات الدّعوة منذ عشرين يوماً، أي قبل مرض فاطمة الذي فاجأنا، شفاها الله وحماها لنا، لكنّك أجلت كلّ ذلك، وكان المركز ينتظر، وكلّ شيء ينتظر كرمي لعينها، لكن الآن، يشدّ على شفّتيه، الآن صعب، صعب، دعوات كثيرة أرسلت، ووصلت إلى رؤوس كبيرة، كبيرة ووزراء، وإعلاميين وأصحاب مصانع وو... تعرفين طبعاً، أنت أدري مني بهذه الأمور، ومؤكّد انتهى إلى سمعك أنّ اسمي يتم تداوله كأحد المرشحين للوزارة الجديدة، الوضع حساس بالإجمال، يا ستّي أريد منك بالإجمال التعامل مع الموضوع برأس منفتح طبعاً، وهذا ما أعرفه عنك، ويا ستّي إن كانت فاطمة قد قامت بالسلامة حتى ذلك الوقت، هي - عندها - من سيباشر الافتتاح، ويقصّ الشريط الأحمر، وإلا فأنت من سيفعل ذلك بالنيابة عنها، أنت وزيد ستكونان أوّل الحاضرين، أليس كذلك؟

لا أدري إن كانت نظرتي قد استمرت إليه طويلاً، وقتاً اضطره إلى النظر في ساعته مرّتين قبل أن ينهض بارتباك، ويقبّلي مجدداً على جبيني، لينصرف بعدها بقامته المديدة التي لم تنحن بعد. يستطيع المرء أن يشعل الآخر بهدوء، يُضرم فيه النيران أحياناً، وهو يحدّق إليه بعينين متسعيتين، لا يخجل.

كان رأسي يفكر بسرعة وبقانون، كيف أردّ ولو صاعاً بسيطاً ممّا كان يكيّله هذا الرجل لفاطمة، لو كانت فاطمة إلى جوارني لأحسّت بالغضب الذي يتأجج في صدري، ولفكرت ربّما بالطريقة نفسها التي أفكر الآن بها.

عند الواحدة ظهراً سألتني الممرضة إن كنت أريد الدخول لرؤيتها، أجبته: نعم.

أعطتني الكمامة والروب والقفازات، غطيت شعري، ودخلت، وقفت إلى جانب سريرها، لم تكن المرة الأولى التي أدخل لرؤيتها، وحدي سمح لي برؤيتها عن قرب، وهذه هي المرة الثالثة التي أفعل.

وجدت وجهها أكثر نحولاً من ذي قبل، وأكثر شحوباً، تمنيت لو تفتح عينها لتراني قليلاً، لأراها قليلاً وهي تنظر إليّ من جديد، فأحسّ أن الدنيا بخير، وأنّ الحياة بأسرها لاتزال بخير.

تسمّرت عيناها على عينيها المغلقتين، خيل لي أنّ رموشها ازدادت طولاً وكثافة، انزلق بصري على يديها اللتين بدتا الآن معروقتين شفافتين، ظهرت الشرايين الرقيقة خضراء واضحة، ثمة بقع خضراء تتوزع على جلدها الرقيق الأبيض جرّاء الحقن التي تخترقه، انحنيت، قَبَلْتُها بلطف، خفت أن أوقظها من منامها، رفعت أناملها الرقيقة، قَبَلْتُها واحدة واحدة، خيل إليّ أنّي أسمع نبض قلبها، خيل إليّ أنّها تحرّكها، وأنا أضعها على الفراش مجدداً، لا أدري، لم أعد أرى جيّداً، طبقة كثيفة من الدمع راحت تغشي بصري،، أغلقت جفنيّ عسى أن يرتاحا من ثقلهما، انسابت الدموع على خديّ

وعلی صدري، ابتعدت سريعاً لئلا أصيب فراشها بشيء كما أوصتني الممرضة أكثر من مرة، ارتدّ رأسي إلى الخلف، تصميم هائلٌ نبتَ في قلبي، وشبح حيّان يتراقص أمام عينيّ.

الزينة التي انتصبت من أوّل الشّارع إلى نهايته كانت مذهلة. زينة بديعة الألوان والأشكال، فيها ما هو جميل ومختلف، مؤكد ليس حيّان من نسقها.

رغم أنّ البناية لم تكن قد انتهت بعد، إلّا أنّ المحالّ التي جاورت المركز الخيريّ المنوي افتتاحه بدت كلّها مغلقة بشكل أنيق، نظيفة لماعة وناجزة، كلّ شيء في المشهد ظهر مرتباً، منسقاً وراقياً. على ما يشبه التراس أو السّاحة الممتدة أمام البناية طاولات مزينة وكراسٍ مرصوفة، عليها جميعاً أغطية من الساتان، زرقاء زرقاء عميقة، زرقاء لون البحر التي يُعجبُ بها حيّان إعجاباً شديداً، في الوسط جعلت باقات من الزهور البنفسجية ذات عروق خضراء ملتفة ومنسقة بشكل بديع منسجم مع لون الساتان.

خدم يروحون ويجيئون، يرتدون بزّات رسمية سوداء، يصفون طابعاً هاماً على المكان، يضعون قفازات بيضاء بأيديهم، يتولون تقديم أكواب الشّراب على أنواعه، كلها (Fraîche) طازجة معصورة ومحضرة خصيصاً للمناسبة، كما قال لي أحدهم حين اعتذرت عن الشرب. صوانٍ رصّت عليها قطع من الحلوى، قطع كاتو متنوعة صغيرة شهية المذاق، تتلاءم مع الأفواه المميّزة التي سنتولى التهامها.

وجوه كثيرة وقامات، وجوه كثيراً ما رأيتها عبر شاشة التلفاز، وعلى صفحات المجلات، وأحياناً على صفحات الجرائد قرأت أخبارها وتصريحاتها، كلّها ضاحكة ملتزمة، البعض منها يبدو وقوراً جداً على درجة هائلة من الانشغال والأهمية، بمجرد أن يلمح حيّان، أن يستلم عليه، يعلو ضحكه، ويشندّ ابتسامه كأنه يُسلّم على رئيس الولايات المتحدة للتوّ واللحظة.

يحييني حيّان كلما عنّت منه التفاتة إلى الموضوع الذي يضمّني وزياداً، أرفع كأسٍ محيية، أريده أن يطمئن.

سألني حين وصلت عن فاطمة، أجبته:

- هي اليوم أفضل.

- عال، عال.

وراح يفرك يديه، أثنى على أناقتي، وعلى أناقة زياد قال له، وهو يتفحص بزّته الرّمادية:

- برا؟، ذوق نيرمين عظيم.

بصقتُ بعد أن أدار ظهره، استاء زياد.

الاحتفال كان أنيقاً قصيراً، تقدّم أحدهم، تحدّث حوالى عشر دقائق عن حيّان، رجل الأعمال العصامي الناجح، النشيط الذي لا يهدأ، والذي بات في زمن قياسيٍ دعامة أساسية من دعائم الاقتصاد الوطني في البلاد. وهو صاحب القلب الكبير كذلك الذي لا ينسى إطلاقاً أهله وأبناءه من بني وطنه المحتاجين للرعاية، فافتتح لهم هذا المركز الخيريّ، وسنعلن فيما بعد آلية الاستفادة منه

على وجه الدقة، وما هي شروط هذه الاستفادة، وأي عناصر تتوخى بالضبط! وطبعاً تم توجيه الشكر والترحيب باسم وزير المستقبل السيد حيّان - وهنا علا التصفيق الحارّ - لكلّ من ساهم، ويساهم في أنواع التبرع الذي يغذي مثل هذا المشروع الهادف، وأعلن أنه سيتم توزيع بطاقات خاصّة بهذا الشأن، عليها أرقام الأرصدة التي تستقبل التحويلات المالية، أو الودائع العينية التي تخضع لآليات أخرى يتم إعلام أصحاب الشأن بها، ثم طلب من المحسن الكبير صاحب المقام الرّفع السيّد حيّان التّقدم من المنصّة.

وقف حيّان، ووقفت إلى جواره صبيّةٌ حسناء جميلة تضاهيه طولاً وقامة، أعلن شكره لكلّ من حضر، ولكلّ من اعتذر عن الحضور، وقال إنّه لا يرغب في هذه الأمسية الجميلة أن يكثر من الكلام. فأسلوبه في الحياة بيّن واضح، وهو الأعمال لا الأقوال، وشكر، فضّجت السّاحة بالتّصفيق، والاستحسان، رفع يده فصمت الحاضرون، أردف:

- أستغلّ هذه الأمسية لأقدم لكم هذه الجميلة الفاتنة زوجتي نيكول، كنتويج لكلّ الأعمال الجميلة الرائعة التي أنجزتها، إنّها إنجازي الأهم، احتضنها، وقبّلها. علا التصفيق والهتاف مجدداً:
- براؤ، براؤ، مبروك.

انفجرت أضواءٌ وألوانٌ وأصوات، راحت المفرقات تعلو في سماء الوسط من مختلف الأنواع والألوان والأشكال، أعترف أنني كنت سأجدها رائعة، لو كان مزاجي رائقاً، انسابت موسيقى ناعمة جميلة، بدأ عازف كمان يبرز ويتقدم شيئاً فشيئاً، يعزف وهو يتمشى بهدوء بين الحضور لحناً جميلاً رقيقاً، مؤكداً لا يلائم دخيلة حيّان.

فُتحت زجاجة شمبانيا على شرف المركز والعروسين، اللذين قاما بقصّ الشريط، ورفعت الكؤوس عالياً وانحنت الرؤوس تؤدي التحايا والمجاملات.

استمرّ الحفل حوالى السّاعتين، كنا أول المنسحبين، باركتُ لحيّان وقبّلته معربة عن سعادتني به. شكراً، قالها مندهشاً، شدّ على يدي بحرارة وبانفعال معلقاً:
- كنت واثقاً دائماً أنّك فتاة رائعة، شكراً، شكراً لك.

في آخر الشّارع الطويل الذي شكّل الممر الوحيد للوصول إلى ساحة الاحتفال، وقفت مع زياد بجوار صندوقين صغيرين، وكلما خرجت سيارة من الحفل، سحبْتُ كتيباً صغيراً أنيقاً قد لفّ بشريط، وسلّمته إلى من في السيارة ممن كان حاضراً قائلة: إنّها هدية حيّان.

أشرفت بنفسني على توزيع كلّ النسخ التي قمت، وبمساعدة زياد طبعاً، بإعدادها وبطباعتها على وجه السرعة، جعلت فيها صوراً متعددة لفاطمة، الصّورة الأولى كتبت تحتها [زوجة حيّان الشرعيّة]، اخترت صوراً أخرى تظهر فاطمة أيام حيويتها، الصّورة الأخيرة التقطتها لها بالمستشفى، كتبت تحتها [فاطمة اليوم بفضل المحسن الكبير حيّان]، وقمنا بطباعة أقصوصة من الأقصوصتين اللتين كتبتهما فاطمة، ولم تتسنّ لها طباعتها، النسخة الأخيرة من النسخ الثلاثمئة التي وزعتها أرسلتها مع واحد من الخدم إلى حيّان.
وهذه هي الأقصوصة.

فارس أحلام... في بلاد العجائب

كان يا ما كان، في حينٍ غافلٍ من الزمان، كان ثمّة بنتٌ شوي مهضومة، شوي حلوة، يعني بالعربي الفصيح بنتٌ لا بأس بها، متوسطة الجمال، قد أنهت دراستها الجامعية الفلسفية، فبات يحقّ لها أن تحلم شأن كلّ فتاة ناضجة بفارس الأحلام... فارس سيملاً عليها حياتها، وينقلها من حال التّبعية إلى حال الاستقلال والسّعادة والحرية.

وبما أنّها كانت تحيا في بلاد تشبه بلاد اللّبن والعسل بحلاوتها، وبتدقّ خيراتها، فقد كانت تفتتح صباحها كلّ يوم بهذا الدّعاء الذي ابتكرته لها أمّها منذ ما قبل ولادتها، ثمّ عملت على تحفيظها إيّاه حرفاً حرفاً، مذ غادرت نعومة أظافرها، وبلغت الرابعة عشرة من عمرها، حتى بات أهمّ ما في نهارها، تتشامم أشدّ التشاوم إذا حدث يوماً، وتأخرت في تلاوته.

وهو دعاءٌ قيم ذو شقين، الأوّل منهما حمديّ، تشكّر فيه ربّها من خلاله لأنّها استيقظت بعد منامها، إذ الحياة نعمة هائلة كما علّمتها أمّها، عليها أن تشكر الله يومياً بشأنها، تشكره لأنّه منحها أباً رائعاً سنياً، وأمّاً جميلة رقيقة حريصة على مصلحتها، وتشكره لأنّه خلقها كاملة غير منقوصة إصبعاً، ولا رجلاً، ولا عيناً، ولا شعرة واحدة، فهي لم تفقد عضواً، ولا شعرةً، خلال رحلتها المبهمة من رحم أمّها المظلم حيث وردت ماءً حاراً متدفّقاً، حتّى خروجها إلى عالم النّور والأحياء والأجلاء.

أمّا الشقّ الثاني فمطلبيّ صرف - بات يحقّ لها طبعاً - حيث تروح تطلب من ربّها بما أنها شكرته أولاً أن يستجيب لها بسرعة وبأمانة، فيهبها عريساً: متوسط الجمال، متوسط العمر، متوسط الفهم، متضخم المال، متورّم السلطة!

وبما أنّها فتاةٌ طيّعةٌ، راضيةٌ مرضيةٌ، تُحسن الاستجابة لمطالب أمّها، فتكرّر دعاءها بأمانة وبحرارة كلّ صباح، وعلى مدى اثنتي عشرة سنة، لم تغفل خلالها لحظةً عن الدّعاء بحرارة وبإخلاص، فقد منّ الله عليها أخيراً، وقد بلغت السادسة والعشرين، بفارس الأحلام المنتظر الموسوم وسماً دقيقاً بالمواصفات التي كزّرتها، وألحت عليها، فبدا وكأنّ كلامها قد نزل حفرأ وتنزيلاً، وأنّه وقع موقعاً حسناً في ذات العليّ القدير، فإذا بالعريس الموعود، متوسط الجمال إذ لا يشكو إلّا من عرّج طفيفٍ في قدمه اليمنى لا يكاد يُلحظ، ومن «حولة» خفيفة في عينه اليسرى - فضلت اعتبارها حولة حُسن - لولا أنّها حالت أحياناً دون استمتاعها بنظراته الولهيّ الموجهة إليها، فقد كان يُخيّل إليها، نقول يُخيّل ليس إلّا، أنه ينظر إلى حائط الصّالون حين ينظر إليها. هذا بالإضافة إلى تلعث لسانه، وهي سرعان ما تجاوزت هذا الاخلال بالمواصفات المطلوبة، فالله أعلم بالنيّات كما أخبرها، وهو كان ينوي دائماً التّصويب المرکز إلى عينيها، فقلبيها بالتالي، لا إلى الحائط، ففضلت الانتباه إلى النية بدل التحديق إلى المظهرية. والعريس يحبّ قول الشعر متغزلاً بها لو استطاع إلى ذلك سبيلاً! أمّا لناحية العمر، فقد كان الفارس في الخامسة والثلاثين بالتّمات والكمال حين تقدّم لخطبتها؛ وقد تناهى إلى معرفتها أنه متوسط التّعليم، إذ لم يفلح رأسه الضيق الجبين في استيعاب الأسس المعرفية الأولى، فأصرّ على الخروج المبكر إلى الحياة باعتبارها المدرسة الأهم، كما أخبر بذلك والده مراراً وتكراراً، إلّا أنّها لم تتأكد إن كان متوسط الفهم أو كان معدومه - ظلّت في حالة تشكيك وتفكّر مدّة - بما أنّه لم يكن يعلّق على أيّة مسألة تستفتيه حيالها،

سواء كانت اجتماعية، أو سياسية أو فكرية، إذ تسرح نظراته إلى الأفق البعيد، ولا يعود يبصر شيئاً أمامه، وحين تُظهر غضبها يسارع إلى استرضائها بالقول:

- أريد أن أسمع رأيك يا حبيبتي، الستات أولاً، ألم تقولي ذلك البارحة، يه، ما بك؟!!

حيرتها المسألة فترة، لكنها ما لبثت أن ألفت بها خلف ظهرها، بذاك نصحتها والدتها المسرورة بالعريس الذي طال انتظاره.

وحصل أنّ هذا العريس، وبعد شهرين، شهرين فقط من إعلان خطوبة الفتاة الرّصينة عليه، وكانت البلاد في ورشة وخضة سياسية لم تعبأ بها، إلا حين وصل الخضّ بحركتيه إليها، إذ سمّي خطيبها وبقدرة قادر، وزيراً في الحكومة المتعجّلة التي تمّ تشكيلها، وتمّ اختيار أعضائها استناداً إلى موروثاتهم أو إنجازاتهم المجيدة. لم تسأله تفصيلاً عن الموضوع ولا سيما في الفترة الأولى التي بدا فيها ذاهلاً عن نفسه وعنهما. إذ فقد تركيزه تماماً، وازداد مسار عينه اليسرى انحرافاً، نصحتها أمها بالتريث، وبالوقوف إلى جانب عريسها الذي ارتسمت الدهشة الدائمة على وجهه، فارتفع حاجبه فجأة، واتسعت عيناه قليلاً، مما أكسبه مشهداً مهيباً يوحي بالتفكّر، على الأقل في نظر من يرونه للمرّة الأولى. وبما أنّ الأم شديدة الكياسة والذكاء، فقد نصحت ابنتها بملازمة عريسها في الفترة الأولى من توليه مهامه الجديدة، فأوحت إليها بضرورة تعجيل توقيت الزفاف الموعد، لأنّ في ذلك:

- إراحة لذات الوزير الجديد المعذبة في حبها، فيصفو جسده، وبالتالي ينجلي ذهنه، فيصبح بذلك أكثر استعداداً لاستقبال التحولات الخارجية الجديدة الشديدة التأثير في كيانه لتسارعها، ولتوالي وتيرتها بشكل غير متوقع. فيلبي بالتالي تحولاته الداخلية أولاً التي يحركها حُبها، وحبه المقابل لها.

ونصحتها كذلك بأن تتغاضى بعد ذلك عن مسألة إحراجها بالنسبة لعرجه، ولحواله تحديداً، وأن تقنعه أنّ حولة الحُسن اليسارية هذه، إنّما هي سمةٌ جماليةٌ هامةٌ، عليه المحافظة عليها، والمباهاة بها إذا أمكن، وعدم التلاعب بمشهديتها بعملية تجميلية أو بسوى ذلك، وأنّ العظماء، العظماء حقاً قد ابتلوا جميعاً بعلامة فارقة ضمنت لهم امتيازهم، وافتراقهم عن سائر مخالقي الله الذين يمشون في الأرض مرحاً... وذكرتها على سبيل المثال بقصر قامة نابليون وبعظيم أفعاله. عساها تعتبر. اقتنعت الفتاة، وكان لثقافة والدتها الفضل الأول بذلك.

وبما أنّ المرأة أمها، امرأة مجربة حكيمة، فقد أعطت نصائحها العلية ثمارها ناضجة دانية، وتحول زوج ابنتها صهرها العتيد، الوزير الجديد، بعد أسبوعين اثنين فقط من الزواج إلى ما يشبه الفرس النشيط في ساحة السباق.

حيث بدا الرجل فجأة أكثر ارتفاعاً وامتداداً، وازداد صدره رحابة واتساعاً، واستطال شعر رأسه وغزر، مما اضطره إلى قصّه مرّة أسبوعياً احتفاءً بالمنصب المهيب، وقد كان يقصّه مرّة كلّ أسبوعين سابقاً، وانطلق لسانه الذي كان متلججاً حين يزدحم الكلام في رأسه، فأصبح فجأة ذرب اللسان، يتحدّث بلا انقطاع على الفاضي والمليان.

واكتشفت زوجته أن لديه مقدرات عقلية، بعد اكتشافها مقدراته الجسدية، وشجعته أمها على الغوص عميقاً عميقاً عساها تحصل على المزيد من الاكتشافات، وهكذا كان مما ثبتت إيمانها بنظرية النشوء والارتقاء الداروينية، وراحت تحثّه على الحديث مطوّلاً عن ذاته، عن أسرته، عن

طفولته، عن مشاكساته، عن جرائمه الصغيرة السرية - إذ لكلِّ مَنَّا جرائمه كما أكّدت له، واضطرت أن تقسم حتى يطمئن لقلوبها، وحتى تورق الثقة في ذاته حيالها - تلك التي كان يخبئها عن أهله وأخوته، وكلّ خلانه، عن علاقته بجسده، بأعضائه المكشوفة والحميمة، بصويحياته، إن كان له مثلهن، فهي اكتشفت بكارته تماماً كما فعل هو، واحتملت حماقاته في هذا الميدان، وتجريبه الغبي لجسده ولجسدها، إلى أن اكتسب شيئاً من الثقة بذاته، إذ هي أوهمته بتفوقه في ساح الفراش، وبقدرته الهائلة على المؤانسة والإمتاع في عالم الفرج والانفراج، وفي عالم السّاق والكاس والطّاس.

وبعد أسبوعين، بعد ثلاثة أسابيع على ما تعتقد، راح خياله يكبر ويتورم، وانطلق يحدثها عن مغامرات رجولية، كانت له مع نساء خرافيات بروعتهنّ، وبانسيابهنّ وبتهافتهنّ يحدثها ولهاته يشندّ، ولعابه يسيل، ويزداد حول عينه، فلا تعودُ تحظى بنظرة من لحظه، لكن لا بأس، التجربة مشجّعة كما تقول أمها، والرّجل بدأ يكتسب ثقة موفورة بذاته، ثقة تحوّله اقتحام المجلس المخيف الذي سمّي له فجأة، على غير توقع، وبدون انتظار، ولكنّ للأقدار مشيئتها كذلك، ولا سيّما حين ترسم الحظوظ في بلاد السّحر والعجائب، وبلادها كما قالت لها والدتها أكثر من مرّة مفتوحة على كلّ شيء، مفتوحة على الجحيم، وعلى النّعيم، لكنّ الذكيّ، والذكيّ فقط هو الذي يستطيع اقتحام الأبواب المغلقة، وأنّ عليها أن تحمده مجدداً، وكثيراً، لأنّه في ما يبدو قد أرسل لها مفتاحاً ذهبياً لواحدٍ من تلك الأبواب المغلقة، هذا المفتاح السحريّ هو زوجها الطيّب ذو القلب الحنون، الذي أحبّها وحدها من دون نساء الأرض، أو هو كما حاولت أن تشبّهه لها: المادة الخالصة غير المشدّبة، التي عليها هي، وهي وحدها دون العالمين، تقع مسؤولية صقلها وتنعيمها، وتسويتها، وإزالة زوائدها، حتى تتمكن من إيلاجها في فتحة من فتحات النّعيم المنتظرة لقدمها، وقدم أمّها الرّقيقة الحريصة، برفتها طبعاً، ويدها الحازمة المباركة على ذراع ابنتها!

وفي سهرة من سهراتهما الهنيئة راح يروي لها بعض مغامرات الليلة السابقة، وكيف شارك في صفقة كبيرة - أكبر ممّا تتخيلين - ويغمز بعينه اليسرى، أصبح من خلالها ملاكاً مساهماً في عقار هائل يكاد يكون بلدة، في جنوب البلاد - وكيف وقّع على صفقة، ها، يزوم، وهو يتحدّث عنها، ويقلب شفّتيه، لا يدري بالتحديد ما هي، لكنها صفقة هامّة كما قيل له، وتحتاج إلى توقيعه، إلى توقيعه فقط كي يعبر ما فيها إلى البلاد... لكنّ أطرف ما حدث معه في سهرته الفنية، هو استماعه للرجل الظريف المرافق للوزير الزميل الذي قضى الليلة في قصره، والذي يبدو أنّ الوزير يستظرفه جدّاً.

أخبره الرّجل أنه المرافق الأمين له في غدواته وروحاته، وأنه يكاد لا يخفي عنه شيئاً من خصوصياته. يعني - بينهما ما يشبه وحدة الحال - تركه يتحدّث على سجيّته بعد فترة من دخوله، سأله عن آخر زيجاته، فانطلق الآخر يتحدّث بطلاقة ما بعدها عن العروس التي افترشها قبل أسبوع على سريرها، والتي استمرّ يتحايل عليها أوّل الليل ظاناً أنّها خجلة منه، فإذا به يتفاجأ بعد أن تمكن من ركوبها، بعدم عذريتها، فقام بضربها ضرباً مبرحاً، وحين واجهها بالاستفسار، فتحت عينيها في وجهه، قائلة:

- ظننتك غشياً.

فما كان منه إلّا أن ركبها مجدداً، وقام بمجامعتها، ليرمي عليها بعد ذلك يمين الطلاق.

كان يحكي لها التفاصيل بدقة، مُرفقاً إيّاها بتعليقات الوزير الزائر المستمتع حتى قاع نخاعه بالحديث الظريف، والمستحسن لحماسة مرافقه ولنخوته، ممّا دفعه هو الآخر إلى إبداء الحماسة نفسها، وإلى الإحساس بالمرح نفسه الذي كان يشعر به الوزير العتيق المعين وزيراً للمرة الرابعة. هكذا اكتشفت الزوجة الهنية كيف يقضي زوجها أيامه ولياليه المسلية النديّة. وكرت الأيام...

تمّت الأقصوصة.

استغرق توزيع النسخ حوالى ساعتين، جلسنا بعدها في السيارة نتحدّث، ثمّ أوصلني زياد إلى المستشفى، بعد أن رفضت العودة إلى البيت، كنت قد بدأت أحسّ أنّ المستشفى هي بيتي الآن، السّاعة قد شارفت على الثانية بعد منتصف الليل، حيّيت بعض من كان ساهراً من الممرضين، الممرضة القائمة على العناية بمريضتي لم تكن بينهم، نظرت من الزجاج إلى الداخل كانت هناك، كنت قد حملت لها بعض الحلوى التي أصرّ الخادم على تقديمها لي وفقاً لتعليمات حيّان، الضيافة للجميع.

هي لطيفة، احتفظت لها بها. ألقت عليّ تحية المساء عند خروجها. قالت:

- تبدين اليوم أفضل.

- فعلاً؟

سألتنني عمّا إذا كنت أرغب بالدخول ورؤية فاطمة؟

- لو سمحت.

جهّزت لي الملابس المعقّمة.

دخلت، الغرفة تعبق بروائح الأدوية والمطهّرات الطبية التي يدفع ثمنها حيّان.

اقتربت من سرير فاطمة المعلّقة بين الحياة والموت لا أدري لمّ أحسست وأنا اقترب أنّها تشعر بخطوي، وأنّها تبتسم لي، الوجه الشّاحب عينه، ازداد نحولاً وهزالاً، وبُعداً عن الحياة، فكّرت بأنّها قد بدأت رحلة لا عودة لها منها.

فكرت بأنّي أحبّها كما لا أحبّ إنساناً آخر في الحياة، حتى أمي، حتى زياد.

نظرت إلى يديها المعروقتين، أقبلهما الآن، أحسّ ببسراها على خدي، أحلم بها تداعبه مثلما كانت تفعل وأنا صغيرة، تلاعب خصلات شعري وتمسّدها، وتعني لي، أتمنى لو أعرف ردّة فعلها على ما قمت به الليلة. أتمنى أن أكون قد أسعدتها ولو قليلاً، كما أتقنّت إسعادي في الحياة، أرقب وجهها الهادئ، لا أعرف مع من هو متصالح هكذا في هدوئه مع الموت أم مع الحياة!؟

أمسح دمعات تنساب على خدي، تفلت مني لتلامس الفراش، أتركها، ألمح ظلّ ابتسامة تنسربُ إلى الملامح، تغزو أسفل العينين، تتلألأ على الجبين وتعنّلي الشفاه، أقبّل جبينها البارد، وأغادر المكان وعيني تحدّق إلى فراغ.

هذا المطرُ المستبد الذي لا يريدُ أن يتوقّف....

الدنيا بأسرها باتت رطبة مبلّلة، كلّ عصافيرها، كلّ شجرها، جذورها، أطراف أوراقها، ألوانها، حبّاتُ التراب تحتها.... ما عاد بإمكانها شرب المزيد! تشرقُ الآن بكميّات المطر الهائل الذي ينصبّ انصباباً كالزمزاريب، حبّاتٌ كبيرةٌ ثقيلةٌ تهوي على رؤوس البشر والأشياء وأحجار المياني... كلّ شيء غرق في المياه، شهرٌ كاملٌ: ثلاثون يوماً جرّت معها ثلاثين ليلةً والمطر لا يتوقّف، لا يُهدأ، ولا يرتاح، ينصبّ على الرّؤوس، كأنّ كلّ ما في السّماء، ومن في السّماء، إنّ كان ثمّة من هناك، قد شمّر عن ساعديه، وراح يملأ دلاءً كبيرة هائلة، ويدلقها دلقاً على من في الأرض.

أدوسٌ بقدميَّ على الرّصيف، تعلو طبقةً من المياه حول الحذاء، ترتفع معوّضة عن المساحة التي احتلها كعبه، أحسُّ بالبلل حتّى ولو لم تصل القطراتُ إلى قدميَّ، أشعرُ أنني مبتلةٌ حتّى القاع، حتّى العظم، حتّى النّخاع الشوكي الذي قيل إنّه يستقرّ في مكان مكينٍ مكين، يستطيعُ البلل أن يخترق الحجب، ويصل إليه.

أقفُ إلى الرّجاج بعد أن أصل، وأنا أعدُ نفسي أن ربّما بعدَ قليلٍ تخفُّ حدةُ السّيول، لكنّ زخّات المطر تزداد، الحبّات تتوالى بقوة، ترتطم بالرّجاج ثمّ تنتشّطُ و تنتثرُ مصدرةً أصواتاً كأنّها اللؤلؤة الخافتة، ربما تولول لأنّها وصلت إلينا! هالتهُ المفاجأة! ترتفعُ أصواتها، تصبح أكثر حدةً، تبدو في لحظات كأنّها الرّصاص، الأخطُ عصفوراً يطيرُ بسرعة كبيرة من شجرةٍ إلى أخرى، هو الآخر يهربُ بريشه المبتلّ، أنتقلُ بنوع من الفضول إلى النّافذة الأخرى، الأحقه ببصري، أريدُ أعرّف أين استقرّ؟ أتنبّه إلى كونه قد تخفّى بظلّ ورقة كبيرة من أوراق شجرة الكريب فروت التي استقرت في الحديقة. دون إرادة مني يبيتسّم قلبي، كلّ أحدٍ، كلّ مخلوق يستطيعُ بطريقة أو بأخرى أن يجد مأواه، لكن هل هو راضٍ؟ هذا هو السّؤال؟

سأحاول أن أسمع تغريده لكي أطمئنّ، أمضي وقتاً طويلاً محاولةً الإصغاء... لا شيء. سقسقة المياه تزدادُ من حولي، أنفاسي تسبّبُ ضباباً ناعماً على الرّجاج الذي أكاد ألتصقُ به، وأنا أتفحصُ الخارج، المطرُ لا يريدُ أن يتوقّف، ربّما أفلت الرّمام، أمطارٌ أمطارٌ تتوالى، والبللُ وصل حتّى إلى العظام، إلى الشّرايين المستقرّة فيها... لا أرى عصفوري، ولا أسمعُ غناءه، لا أفلحُ في زحزحة نفسي من أمام الرّجاج، لا أفلحُ في إزاحة الغباش الرقيق عنه، أخفقُ في بعث إحساسٍ طفيف بالدّفء أكافحُ به هذا السيل الجارف من البلل، من الأمطار.

إنّه الشّتاء الأوّل بعد رحيل فاطمة، كأنّما الدنيا تشاركني بكاء قلبي... هل تحسّ هي بي، هل تدرك مقدار الفراغ الذي خلفته وراءها؟ زياد دائماً إلى جواربي، يكاد لا يفارقني إلّا حينما يكون في عمله، ما تبقى من نهاره وليله ينفقه وهو بين يدي، يحتضنني، يلامس وجهي، يقبل أناملي كأنني طفلة المدلّلة، يضعني في حضنه الدافئ، يقول لي:

- إياك أن تخافي القادم من الأيام، أنا لست حيّان، وأنت لست فاطمة، أنت روعي التي اتخذت لها شكلاً إلى جوارِي.

أحبّه وهو يهمس ذلك بأذني، أمسك أنامل يده الدفيئة التي تسعى على عنقي، أقبلها واحداً واحداً وأجعلها في يدي، أضعها على صدري، ليشعر بنبض قلبي وشرابيني وأنا بين يديه.
كثّر يقولون لي إن وجهي بات يشبه وجه فاطمة بعد موتها، لكنّ فيه ما هو أجمل، هو يشعّ أكثر، أعرف أنّ حبي لزياد هو الذي يضيئه على هذه الشاكلة.

أفكر بحيان الذي يستمتع بالمنصب الجديد وبالزوجة الفتية الصّغيرة، لم يكن ما فعلت أكثر من هذا الماء الذي ينصب بغزارة في كل الأنحاء، يستقر حيناً وبعدها يعدو، لا أحد يفكر به بعد حين
لازالت عيناَي تبحثن عن عصفوري، ألمحه الآن يعدو مجدداً، ينتقل من غصن إلى غصن آخر، يسقسقُ بنعومة، ينتقل من شجرة إلى أخرى، يقتربُ فجأة من الزجاج الذي أزحت الضباب الرقيق عنه، يحدّق في عيني لحظةً، يرتعش جسدي، أستشعر أنفاس فاطمة تطوّف حولي، يستمرّ العصفور يحدّق إليّ، الرّعشة تعروني، تغمرني أكاد أحسّ أنّ فاطمة تحدّق إلي من خلف الزجاج، تبسم لوجهي المتلّهّف إليها، لحظةً، لحظات، ويبتعد عن الزجاج، يتراجع إلى الخلف، ليطيّر بعدها حراً، سهما صغيراً ملونا متعالياً نحو السّماء..... تماماً كما تحررت هي بروحها وبجسدها من كلّ قيد.....

تمّت

هدى عيدكانون الأول / 2012

... أنتِ أصغر مني، أعلم، يبدو عليكِ
في الثامنة والثلاثين أو في الأربعين،
نعم، نعم، أصبتُ مجدداً، لكنك ما شاء
الله، الغدرا تحميكِ، ماذا أقول؟ جميلة
الأعمى يرى ذلك، وجسمك «لبّيس»،
أنتِ مُرّي على المحل، وسترين كيف
أجعلكِ Style، قطعة غير شكل.



ماذا زبائنني؟ أكيد، أكيد هم
منوعون، من كلّ الطوائف، بتشوفي

عندي موارد، ومسلمين ودروز، الثياب ليس لها هوية، مهنتي
عابرة للطوائف والحوارج والمناطق، ها ها ها، وأنا أطف
الجميع، طبعاً لا أحبّ الجميع، قلبي لا يتحمّل، لكني أطفهم
طالما يشترتون، المهم هو البيع، أبيع كثيراً وحياتك، حتى لو
ربحت قليلاً أحياناً، لكن «الحركة بركة»، أفضل من لا شيء...
هكذا يشتهر محلي، يقصدونني من كل مكان، خصوصاً من هناك،
من الناحية الأخرى... بات معهم أموال، ها، تغيّرت الأحوال...

هدى عيّد، من مواليد بلدة الوردانية، قضاء الشوف.

• حائزة على ماجستير في اللغة العربية وآدابها من الجامعة
اللبنانية، الفرع الأول - بيروت.

• أستاذة مادة الأدب لصفوف المرحلة الثانوية.

• أخرجت ثلاث مسرحيات للمسرح المدرسي:

• مغامرة رأس المملوك جابر، 2003

• حنظلة، 2004.

• طقوس الإشارات والتحويلات للمسرحي الكبير سعدالله ونّوس،
2005.

صدر لها عن دار الغارابي:

• في بلاد الدخان، ط1، 2001، ط2، 2011.

• الحياة في الزمن الضائع، 2006.

• ركاج، 2009.

• نؤارة، 2011.

ISBN 978-9953-71-799-9



9 789953 717999